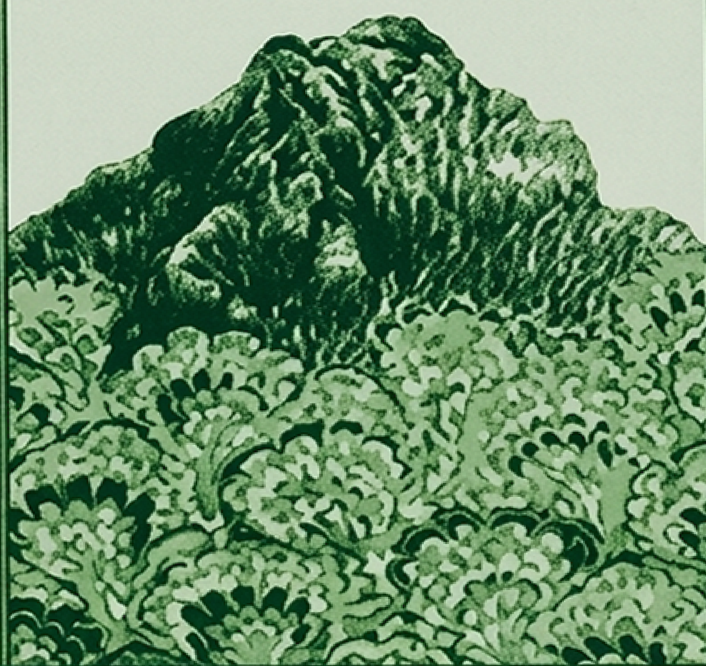
الإسلام ومكارم الأخلاق

وأعلام عشرة من علماء الإسلام



دار الكتاب العربي

دار الشواف للنشر

الإسلام

ومكارم الأخلاق

بأقلام عشرة من علماء الإسلام

الإسلام

ومكارم الأخلاق

بأقلام عشرة من علماء الإسلام

دار الكتاب العربي

دار الكتاب العربي

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

محمد أبو زهرة

الأخلاق .. الأخلاق

قال الله تعالى : « واذا اردنـــا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » [1] .

١ ـــ هذا نص صريح قاطع في ان هلاك الامم وضعف شأنها، وانحلال قواها ، انما يكون بالشهوات المتحكمة والاهواء المتردية ، وبسيطرة ذلك على الذيـــن يوجهونهـــا ، سواء آكانوا مديرين سيطرت عليهم اهواؤهم ، ام كانوا قادة الافكار المسيطرين على الرأي العام ، الذيـــن يبثـــون فيه الفساد ، ام كانـــوا ذوي تقدير دنيوي وجاه لا يستمـــد من الفضيلة او الديـــن او الخلق الكريم ، بل يستمد مـــن النفـــوذ الآثم والتضليـــل المبثـــوث .

ام كانوا من المقلدين لكل مرذول ، ومهمـــا تكـــن قيادة الفساد وتنوعها ، فـــان هؤلاء هم الذيـــن يقودون الجماعات الى الهاوية ، ولا يؤدي الى حتفها سلاح مهما كانت قوتـــه ، ولا ادوات حرب مهمـــا يكن فتكها ، لان كل شيء يسير بالهوى ، لا يجدي ، وكل قوم سيرتهـــم شهواتهم ينحدرون ولا يرتفعون .

وفي هذه الآية الكريمة ما يشير الى ان الترف هو الذى يؤدى الى الفسق ، وان الفسق هو الذي يؤدي الى الدمار .

فعلى الذين يعملون لرفع الامة ، ان يتجهوا الى الدعامة التي تقـــوم عليها ، وهي قوة النفس وسيطرة الارادة المؤمنة على الاهواء الجامحة .

وانه كلمـــا كان الترف المردي كانت القوى المنحلة ، وكلما كانت

---

(١) سورة الاسراء الايـــة ١٦ .

الارادة القوية ، والعزيمة الصادقة والاخلاص المنير كـان النصر المبيـن والتأييـد من رب العالمين .

٢ ـ ولا غرابة في ان الترف هو الذي يجعل الاهواء توجه وتحكم وتدفع الى الانحلال ، فتلك حقيقة ثابتة مقررة في علم الاجتماع .

ولعل ابن خلدون المسلم اول من نبه لذلك في مقدمته المشهورة ، فقد قرر فيمـا قرر ان الامـم التي لم يصبهـا الترف ، ولم تحل عزيمتها كثرة الشهوات ، هي الامـة القوية .

ولذلك يرى القوة الشخصية في البادية اكثر منهـا في الحضر ،وكان في الماضي للقوة البدنية مقامها في الحروب ، وسرعـان ما ينتشر البدو اذا تجمعـوا غزاة للحواضر التي تجاورهم .

اما الحضريـون فلا يقفون امامهم ، بل تنهار القوى الحضرية ، امام بأس البادية ، حتى اذا استقروا امدا ، استولـى عليهـم الترف ، وارخت عزائمهم الشهوات ، فصاروا غرضا لمن وراءهم من البادية . وهكـذا يستمر الحال في تلـك الدورة الدائمـة .

وقد يقول قائل منذوي الافكار التي لا تغوص وراء تعرف الحقائق:

وما لهذا القول وقد اصبح في زماننا هذا ، ان النصر في الحروب ليس بقوة الابدان ، اذ قـد تغير السلاح فصار النصر بالعلم ، وبقـوة الدربة على ما اخترعه ابن الارض من ادوات فتاكة ، وذلك في الحضر لا فـي الباديـة .

ونقول في الجواب على ذلك الكلام ، اننـا لا نأخذ من كلام ابن خلـدون الا شيئا واحـدا .

وهو اثر الترف في حل قوى العزيمة ، ثم الاسترخاء الـى المـلاذ

والشهوات ، والتطبيق الذي ذكره عن اهل البادية والحضر نأخـذه كمثل موضح او مقرب لأثر الترف في حل العزائم .

وان ذلك لحقيقة مقررة ثابتة تطبق في الجماعات كلها ، سواء آكانت هابطـة في مقامها الفكري ام عالية . وسواء كان السلاح فيهـا سيفـا ام رمحـا . أم كان طائرة تخترق اجواء الفضاء ، ومدافع تـدك الارض دكـا ، وجاريات تمخر عباب البحر .

فان الترف المفسد له اثره في كل الاحوال ، والاعتصام بالديـن ، وبالاخلاق له ثمرته في كل الاحوال .

فاذا سيطر الترف كان الفسق عن امر الله ، وكانت الارادة المنحلة والعزيمة الخائرة ، والجماعات الحائرة والقلوب المتنافـرة ، والطبقات المتنابـذة .

ومهما تكن قوة السلاح ، وكثرة العدد ، فان القـوة المعنويـة هي القوة الدافعة ، لان الاسلحة لا بد ان تكون صادرة عن جماعة مؤتلفـة ، وعن ارادات حازمـة .

ولا يمكن ان تتحرك الاسلحة من تلقاء نفسها ، وتعمـل مـن غير عقول مدركـة وقلوب مجتمعة ، وجماعات متآخية ، لتطمئن النفوس ، وتستقر الاحوال . اذ يعتقـد حامل السلاح ، انه يعمل لجماعة تقدر عمله وتجني ثمراته وتستغلهـا في نفع عام ، لا فـي الشهـوات الجامحة ، والترف المفسد واللهو الباطل .

فالانسان لا يقدم نفسه فداء لجماعته الا من يستوثق بانها ، تنتفع بفدائه ، وتعرف ان فناءه بقاء لها .

ولا يمكن ان يتقدم للفداء من يظـن او يعتقد ان الذين يستمتعون

بثمرة فدائهم ، يلهـون ويلعبون ، ويعيشون في الارض من غير و ا
ديـن او خلق او رأي عام لائم مقوّم مهذب .

٣ ــ وانه مهما يكن من الكلام في اثر الترف الذي اشار اليا
القرآني ، من انه السبب في انحلال الامة ودمارها وذهاب قوتة
بقـي لهـا وجـود .

فمن المؤكد انه مناف لسيادة الاخلاق في الامة ، وانه اذا ة
اخلاقها عزفت عن الترف ، ولم تنل من الملاذ الا مـا تقوى به الا
وما يكـون سائرا تحت ظل الاخلاق الدينية والاجتماعية ، وكل ه
مفيد للجماعة ، بحيث يكـون الرجل مصدر خير لامته عامة ولجـ
خاصة ، وللانسانية في شتى الشعوب والاقاليم .

ولكن كيف تكون الاخلاق كابحة للاهواء مانعة من الترف

لا بد ان نخوض بكلمة موجزة في مقياس الخير والشر في ا
وفي فلسفـة الاخـلاق .

وان من الامور التي يثيرها علماء الفلسفة الخلقية الاجتماعية ،
المقياس الخلقي ، وما الضابط لما هـو خلقي ، وما ليس بخلقي .

فهم يقررون حقيقة ثابتة ، وهو ان الخير حكمه واحد عام ؛ ف
خير في امة ، هو خير فيمـا عداها . وما هو شر في جماعة هو شر
الجماعـة الاخـرى .

فحكم الخير والفضيلة عام لا يخص اقليمـا ، وهـو في القـ
كذلك . فأحكامه الخلقية والشرعية عامة لا تخص قبيلا دون قبيل .

فالصدق والعدل والحياء ، هي فضائل في كـل زمـان ومـ
والنفاق والكذب والخيانة ، والنميمة والسعايـة بالفساد فـي الار

والقتل والاعتداء بكل ضروبه ــ حكم القرآن انهـا شر فـي كـل بقاع الارض •

وكذلك فالعدالة خير واجب يلزم به المسلم لا فرق بين عدو وولي ، ولذلك يقـول سبحانـه :

« يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى » (١) •

٤ ــ وان علمـاء الاخلاق يختلفون بعد ذلك في المقياس الضابط للاخلاق • فمنهم من يقول انه الملذات • فكل ما هو لذيذ طيب خير•وكل ما هـو ليس بطيب شر •

ومنهم من يقول ان كل ما فيه سمو وعلو خير ، وما ليس كذلـك فهـو شر • وهذا مقياس ليس بمضبوط ، الا من قبل النفس والاحساس الروحـي • وهذا يشبه ما عنـد الصوفية •

ومنهم من يقول القياس الضمير والوجدان ، ومنهم من يقول هـو الواجـب وهكذا •••

وهناك مذهب مقرر وهو ان المقياس هو المنفعه لاكبر عدد وباكبر مقدار • فكل عمل فيه نفع لاكبر عدد وباكبر قدر خير • وكل عمل فـيه مضرة لاكبـر عـدد شر •

ولعل هذا المذهب هو اقرب الآراء لاقوال فقهاء المسلمين •فالغزالي وابن عبدالسلام قررا ان الاحكـام الشرعية باستقرائهـا ، يتبين انهـا جـاءت لمصلحـة الانسـان •

فما يكثر نفعه على ضرره يكون مطلوبا ، وما يكبر ضرره علـى نفعـه يكـون ممنوعـا هذا وتتفاوت المطلوبات في الطلب بقدر الضرر

---

(١) صورة المائـدة الايـة ــ ٨ •

من مكـــروه الى محرم .

٤ ـــ ويلاحظ في تقدير المنافع ادومها وان كان قايلا ، فانه يدخل في تقدير الكثرة والقلة مقدار الدوام . فما ينقض سريعا ، وان كان كثيرا خير منه ، ما يكـــون أدوم ، وان كان اقل من السريع . ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

« أحب الاعمال ادومها وان قلّ »

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« ان الله يحب الديمة من الاعمال » .

وان المنفعة العاجلة يقايس بينها وبين المنفعة الآجلـــة ، وقـــد يترك النفع العاجل ، ويقصد النفع الآجل ، ويكون الخير فيه .

فمن يتحمل المشاق لنيل غرض مقصود ، لا ينال الا المشاق ، انمـــا يأخذ بمبدأ المنفعة الآجلة . فكل مشقة تحتمل لغايـــة تكـــون في ذاتهـــا نافعـــة له او لغيره ، يكون من قبيل الاخذ بمبدأ المنفعة الكاملة ، الآجلة التي تقرها الشريعة ، ويقرهـــا المذهب الخلقي السليم .

ومن اجل ذلك ، كانت مشقات الجهاد يفرضها حكم القرآن لسبيل غايـــة سامية ، وهي حمايـــة الدولة ، وتوفير الامن والاطمئنان للامة ، وتحقيـــق منافعهـــا .

وان احتمال مشاق الدنيا ، لما يرجى من نعيم الله في الآخرة .ولقد روي ان المسيح عليه السلام قال :

« طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره » .

٥ ـــ مضينا على شاطىء البحوث الخلقية ، وما تنتهي اليه مـــن ان المنافع لاكبر عدد مطلوب ، وهو يتقارب مما تقرره الشريعة في جملة مـــا

استنبطه علماؤها ، مقياس صحيح للاخلاق ، والاحكام الشرعية المنزلة .
وانا سقنا هذا الكلام لامرين جوهريين :

اولهما — ان اللذات العاجلة التي يدفع اليها الترف المدمر للاخلاق ، يتنافى مع الدين ومع الاخلاق ، التي يقررها علماء الفلسفة الخلقية . وانه لا يمكن ان تقوم امة ، والترف ينخر في عظامها ، ويدمرها كما قرر القرآن في محكم آياته .

ثانيهما — ان النفع العام مطلوب بحكم الشرع ، وان كل ما يتنافى مع النفع العام لاكبر عدد يقوض دعائم الاخلاق .

وان الذين يقدمون نفوسهم واموالهم ، واقلامهم ، والسنتهم ، يجب ان يشعروا بانهم يفعلون ذلك لمنفعة الكافة . وانهم يجب عليهم ان يقوموا بذلك لاجل الامة ،لا لأجل شخص معين .

فهم خدام لهذا الشخص ، وان قدموه للامة ، وهم خدام الحق والواجب ، وبذلك تسمو نفوسهم ، وتعلو مكانتهم عند الله وعند الناس، وان قدموه لاجل شخص فهم الاذلون ، ولهم من خلق العبيد قرب ، والعزيز من يخدم الحق لذات الحق،لانه عبد لله تعالى ، وليس عبدا لاحد من خلقه . فخدمة الاشخاص ذلة ، وطاعة الله عز ، فلنعتبر ونتدبر .

٦ — وننتهي من هذا الى امور ثلاثة نقررها ، ونطبقها على ما نحن فيه .

اول هذه الامور ان الترف فساد وضد مكارم الاخلاق، لانه اثرة وانانية . والفضيلة نفع عام وايثار . وان الترف اذا ساد في امة هزع اخلاقها ، وتقطع آحادها ، وتنابذوا وتفرقوا . لان كلا لا ينظر الا الى نفسه وما يحدها ولا يخرج عن دائرتها .

وفي الحق انهـا لا تكون امة مجتمعة مؤتلفة ، بل تكون اقطاعـا متدابرة متنابزة • وان الترف وسيطرة الاهـواء والشهوات مزيتان لا ينفصـلان ، وانهمـا معا ، ينجم عنهمـا الفسوق والخروج على امر الله تعالى ، ووراء ذلك النار •وقد قال سبحانه وتعالى :

« فاذا جاءت الطامة الكبرى ،يوم يتذكر الانسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى ، فامـا من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هـي المأوى واما متى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنـة هـي المأوى • » (١) •

وهل نحـن في مجتمعنا الاسلامي عامة والعربي خاصة ، قد تجنبنا متارف الحياة ولم نأخذ منها الا بمقدار استرواح النفس ؟

الجواب على ذلك نأخذه من حاضر معاين وشاهد قائم •

انظر الى ما يذاع في وسائل الاعلام من صور عاريـات او شبـه عاريات ، ومن لهو عابث ومن مثيرات لاحط الغرائز ، ومن شغل شبابنا وبناتنا بالمغريـات •

لقد كنا نحسبه شرا واحدا وهو الانغماس في الشهوات والدعوة اليها ، والاغراء وتسهيل السبل لملء النفس منها • فاذا مع هذا شر آخر ، وهـو التقليـد من غير تفكير •

ان الشعب المجاهد يجب ان يتحصن بشكائم الاخلاق الفاضلة ، وان يدرع بارادات قوية فعالـة •

وهل يمكن ان يتكون جيش من شعبمنحل الارادة سيطر عليـه الهوى ، وشغلته متارف الحياة ؟

---

(١) سورة النازعات الايـات ٣٤ ـ ٣٨ •

انه لا بد من عزمة صادقة يقوم بها المسؤولون في الدولة ، ليتصنعوا ذلك بامر صارم ، ليكون جيش من شعب متحمس العزيمة يريد ما يفعل ويفعل ما يريد .

وقد يقولون ان الامم التي تقلدها في ذلك الترف المغري قوية ، ادرعت بالحديد والسلاح ، فنقول لهم انها ادرعت بالمال والحديد ، ولكنها لم تدرع بالاخلاق الانسانية العالية والعزائم القوية .

ونرى ذلك واضحا في معاركهم . الم تر الى دولة قوية بمالها وسلاحها وكثرة عددها ، وسعة سلطانها ، قد تقف حائرة في معركة يذوب جيشها فيها ذوبان الثلج في مكان حار ، امام طائفة من الناس ،صغيرة في عددها نسبيا ، الا انها مدرعة بارادة وعزيمة ، فتتصدى لتلك الدولة وتحرج موقفها الى حد ما .

٧ ــ الامر الثاني ــ انه لا يمكن تطبيق قانون الاخلاق تطبيقا سليما الا بايمان صادق ، والطاعة لاوامر الله ونواهيه ، وتتخذ الاهبة ونفوض الامور من بعد ذلك لله . فلا بد من طاعة مؤمنة وتنفيذ لاحكام الشرع جملة وتفصيلا ، فهي المتضمنة لاحكام الله تعالى والاخلاق .

فالناس يرون الخير في احكام الله وحكم الاخلاق . وان الواقع في بلادنا انه يتجه بعض العابثين الى ان يجعلوا الدين كأهوائهم ، ويخرجوا القرآن على شهواتهم . وما يوافق هواهم من السنة يتبعونه . وما يخالفها يردونه ، ويلوون السنتهم ، وتعبث اقلامهم بما يسمونه تطورا .

فهؤلاء خير منهم من لا يتعرض للدين بقليل ولا كثير . لانهم يريدون الدين على هواهم ، ولا يريدون ان يكون هواهم في ظل الا

كمـــا قال صلى الله عليه وسلم :

« لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه مسبقا لما جئت به » •

٨ ـــ الامر التالت الاستقامة والامانة ، فالامانة ، تولد الثقة ، والثقة تجمع القلوب • والاستقامة تجعل المؤمـــن كالسيف تتكشف عنـــده الظلمـــــات •

والاستقامة اساسها الاخلاص • فان الاخلاص يجعل النفس تشرق بالحكمة ، وتنطلق بالحق ونعمل به ، وتكون المعاملة الحسنة مع الناس ، ويكون السلوك المستقيم •

ولقد سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم ان يوصيه بوصية ،وان يقول قولا فيه عصمة امره • فقال عليه السلام :

« قل آمنت بالله واستقم » • فهل سارت على الامانة امورنا التي لا تستقيم الا بالامانات يا ترى ؟ اللهماصلـــح امـــورنا واهدنا ســـواء السبيـــــل •

الدكتور محمد يوسف موسى

الدّين والأخلاق

كلاهما يهدف لبيان الخير ويهدي اليه ، ويعنـــــى ببيان الشر وتبغيضه الينا . والاخلاق كما تقول المعاجم والكتب العلمية التي تبحث في هذا الفرع من فروع الفلسفة ، هي مجموعة القواعد التـــي بهـــا نعمل الخير ونتجنب الشر . او مجموعة قواعد السيرة الطيبة المحمودة التـــي يقبلها الناس عامة في كل عصر وزمان .

فاذا كان الامر كذلك ، كان من الطبيعي ان تكون صلة قوية بيـــن الدين والاخلاق ، بل كان من الطبيعي أن تكون الاخلاق تابعة للدين ، وهذا حقا ما يعرفه تاريخ الفكر في القديم والحديث .

نرى هذه الصلة الوثيقة فيمـــا نعرف من تفكير قـــدماء المصريين والهنود والفرس ، وفيما نعرف عن المفكرين اتبـــاع الديانات الوحيية : اليهوديـــة والمسيحية والاسلام .

ذلك بان الغايـــة من الدين وبخاصة ما كان سماويا منـــه ، اصلاح الانسان والانسانية وليست الاخلاق الا هذا .

كان المصريون القدامى كما نعرف ،يدينون بحياة اخـــرى ، يســـأل فيهـــا المرء عمـــا عمل في حياته الاولى . فكان من هذا حرصهم على ان يكونوا اخيارا وفي كتاب (الموتى) على ذلك شاهد وشاهد .

ولدى الهنود ، نرى ان عقيدتهم فيخلودالروح والتناسخ ووحدة الوجود ، قد استتبعت اخلاقا تقوم على الاعراض عن الدنيا وطيباتها ، وعلى رياضـــة النفس بالزهد والتأمل في عزلة وسكون ، كما تقوم ايضا على حب الناس والكائنـــات جميعـــا .

وفي فارس موطن دين (زرادشت) الذي يقوم على الاعتقادبالهين،

اله للخير واله للشر ، نجـد مذهبـا في الاخلاق اساسه ، ان في الانسان صراعـا دائمـا بين مبدأين :

١ ـ مبدأ النور والخير •

٢ ـ مبدأ الظـلام والشر •

ومن ذلك ان على الانسان ان يعمل على نصرة مبـدأ الخير وذلـك باتباعه سبيل الفضيلة حتى ينتصر الخير في يوم آت لا ريب فيه •

هذا في الديانات الوضعية الفلسفية ، والامر في الديانات السماوية أوضح من ان يحتاج للحديث فيه • اذ في كتب تلـك الـديانات ، نرى صلة الاخلاق وثيقة جدا بالدين بل نجد ان الاخـلاق جـزء مـن الديـن وليس في هذا شـيء من العجب •

ان الله العليم الحكيم هو الذي ارسل رسل هذه الاديان كلهـا مبشريـن ومنذرين ، هادين بوحيه الى الصراط المستقيم ، مرشديـن الناس الى سعادة الآخرة والاولى •

وهذه السعادة تكون بالعقيدة الصالحة ، كمـا تكون بالاخـلاق الطيبة المحمودة ، وبهذا نزل الوحي وجاء الشرع • وان كان الباحث يجد في غير عنـاء المثل العليـا للسيرة والسلوك تختلف فيما بينها في هـذا الديـن عن ذاك باختلاف عصور الوحي والرسالات •

ومن المهم ان نشير هنا الى ان اخلاق هذه الديانات تقوم علـى الترغيب والترهيب • على الترغيب في الخير بما وعدت من الثواب عليه، وعلى الترهيب من الشر ، بما رتبت عليه من عقاب •

ولم تر ان تدعو للخير ببيان ما فيه من حسن وجمال ولياقة بكرامة الانسان والانسانية ، ولا ان تبغض في الشر ببيان ما هو عليه من قبـح

في نفسه وتنافي لكرامة الانسان كأنسان .

كما من الضروري ايضا الى ما لوحظ من ان كثيرا من الملحدين الذين لا يؤمنون باله خالق ولا بحياة اخرى يكون فيها الجزاء على اخلاق فاضلة وخلال محمودة من الناحية الاجتماعية .

بينما كثير من المؤمنين بهذا الدين السماوي او ذلك ، لا يعرفون من الخير الا اسمه ، ولا تتفق اعمالهم مع اقوالهم وعقيدتهم الدينية .

ولعل هذه الملاحظة وتلك ، هو ما دعى بعض الفلاسفة والمفكرين المحدثين الى محاولة فصل الاخلاق عن الدين . وذلك بتعديل احكامها عقليا ، والبحث عن اسباب ومبادىء اخرى تدفع للخير وتحبب فيه وتبعد عن الشر وتجعله بغيضا،دون حاجة الى اللجوء للدين وما يرتبه من جزاء على الخير والشر . وبذلك يؤمن بالاخلاق المتدين والملحد على السواء .

* * *

وان اصحاب هذا الرأي ، او ان رجال هذه المدرسة وعلى رأسهم (اميل دور كايم) الفيلسوف الفرنسي المعروف ، يقولون بان من الممكن فصل الاخلاق عن الدين ، وجعلها عقلية في مبادئها ووسائلها ، كما يرون بان هذا من الخير ، اذ يعين على الوصول للغرض الذي تهدف اليه الاخلاق .

انهم يرون بان يكون هذا العمل خيرا والآخر شرا ليس الا حقائق لها وجود ، وكل ما كان كذلك يجب ان يكون من الممكن تفسيره بالعقل وحده دون حاجة للجوء للدين او فلسفة ما بعد الطبيعة .

ولم تعد قدرة العقل على تفسير كل حقيقة من هذا الضرب او غيره موضع شك او عجب ، بعدما رأينا من تقدم علوم الطبيعة والحياة

والنفس ، هذا التقدم الذي فهم به الانسان الكون ، ودانت له عناصر الوجود او كادت .

فاذا كان الامر هكذا في غير الاخلاق ، فلماذا لا يكون كذلك في الاخلاق ؟ ولم نحتاج — في رأي دوركايم — في سبيل تثبيت الاخلاق في العقول والطباع ، ان نلجأ الى طريق يعز على العقل ادراكها ، ان نلجأ الى الدين او ما بعد الطبيعة.

على انه لا يصح في سبيل جعل الاخلاق عقلية ان نحذف منها كل ما جاء عن الدين ، والا صارت اخلاقا هزيلة ليس لها من اساس .ان الواجب ان نبحث عن المبادىء الاخلاقية التي جاءت من السماء ، وان نحدد بعد هذا طبيعتها الخاصة وان نعبر عن هذه المبادىء بلغة علمية عقلية .

ثم للاخلاق طابع قدسي خاص ، طابع الزامي لا يمكن عدم الاعتراف به او الخروج عنه ، حتى انه قد يقبل ان يلحد المرء في دائرة العلم فلا يؤمن ببعض حقائقه ، ولكن لا يقبل بحال ان يلحد في الاخلاق . وهذا الطابع هو ما يجعل للاخلاق قوتها واثرها الكبير في العلم والمتعلم معا .

هذا الطابع يجب اذا الاحتفاظ به،ولكن فيما يقول دوركايم — ليس من الضروري رده للدين او لمبادىء ما فوق الطبيعة ، بل من الممكن تفسيره عقليا في سهولة ويسر .

وقد يمكن التفسير باسناده الى ما يجب للانسان والجماعة من كرامة وتقديس ، وذلك ، يجعل ما يتصل بهما من الناحية العملية مقدسا كذلك .

ولتيجة ذلك كله ، ان يكون في الامكان ان نغرس في الطباع حب الخير لانه جميل في نفسه ، وكراهة الشر لانه قبيح بغيض في نفسه ،دون ضرورة الى اللجوء للترغيب والترهيب .

ومن مثل هذا المبدأ العام ان يفهم الانسان ان من حقه وكرامته على نفسه ان يحترم ما فيه من انسانية ،فلا يكذب ولا يكون جبانا مثلا . وان يفهم كذلك ان من واجبه لغيره ان يحترم ما فيه من انسانية فلا يغشه او يخدعه ، وهكذا يمكن بهذا المبدأ او ذاك غرس الخير وحب الفضيلة في الطباع بعد ان يقتنع العقل تماما ان ذلك جميل وحسن ومحبوب لذاته .

* * *

واخيرا ، فان فصل الاخلاق عن الدين لتكون علما عقليا ، اي اللجوء الى العقل للتحبيب في الخير والتنفير من الشر ، قد يكون له تأثيره الكبير في غير المؤمن بالدين ، الدين الذي يلجأ في التحبيب الى الفضيلة والتنفير من الرذيلة الى الترغيب بالثواب والترهيب بالعقاب .

الا انه قد يلاحظ مع هذا ايضا ان ربط الاخلاق بالدين لا يمنع الباحثين من جعلها علما عقليا ، وذلك بتفسير الاصول التي تستند اليها والمبادىء التي تقول بها تفسيرا عقليا ، كما هو الشأن في كل ما جاء به الدين من احكام وتشريع .

ان القرآن كان حكيما كل الحكمة بما اكد من ثواب وعقاب على عمل الخير والشر . ذلك ضروري اول الامر حتى يعتاد المرء على عمل الخير وحتى يذوق حلاوته ، وحينئذ ليحله نفسه ، وينتهي عن الشر لنفسه لا للثواب ولا العقاب .

حتى هذه الايام ،لم يصل الفلاسفة والمفكرون في هذه الناحية ،

مع الرغبة وطول البحث ، الى شيء آخر غير الدين يمكن ان تستند اليه الاخلاق ، ويكـون لـه طابع القدسية والالزام الذي نجـده للدين ، هذا الطابـع الذي هـو جد ضروري للاخلاق ، حتى في رأي هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيين العقليين .

الدكتور محمود فياض

الإسلام منهج أخلاقي

حرص الاسلام على ان يكون فعل الخير والتزام الفضائل ، وترك الشر وهجر الرذائل . خالصا لوجه الله ، لا لمنفعة خاصة ، عاجلة او آجلة ، تعود على الشخص من الفعل او الترك ، نلمح ذلك في قوله تعالى :

« من يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله » .

ومعنى هذا ان من خرج مهاجرا الى غرض خاص فان اجره يقع على نفسه . ويفسر هذا بوضوح قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » . فحسابه على نفسه لا على الله .

وهذا واضح في ان الاسلام يلزم بالخير لذات الخير ، ويأمر بالفضائل لانها فضائل . وان المؤمن الصادق يفعل الخير حبا في الخير . وليس هذا فحسب ، بل ان توجيه الاسلام الانسان الى فعل الخير والتزام الفضائل لذاتيهما يقوم على الالزام ، لا على التخيير ، فهو يلزمك بالصدق لان الصدق يجب ان يلتزم ، ويلزمك باجتناب الكذب ، لان الكذب يجب ان يجتنب . كما يلزمك بالفضائل كلها ، لان الفضائل يجب التزامها ، والرذائل يجب اجتنابها ، ومن ابتغى غير ذلك فقد ظلم نفسه .

ولقد ضلت الانسانية قرونا طويلة ، ولم تهتد الى مفهوم الخير والشر ، ثم خطا الاسلام بها خطوة واسعة ، فهو في الوقت الذي يأمرك فيه بفعل الخير وترك الشر ،يحدد لك مفهوم الخير والشر تحديدا واضح المعالم لا تضل بعده ولا تشقى .

فهو يعلن ان كل ما يحقق مصلحة للفرد او الجماعة ، او يدفع ضررا عن الفرد والجماعة ، فهو خير يجب ان يفعله المؤمن ابتغاء وجـه الله . كذلك كل مـا يعطل مصلحة او يلحق ضررا بالفرد او الجماعة ، فهو شر يجب ان يترك لوجه اللـه .

والمؤمن في فعله او تركه يقصد بالعمل وجه الله ، لان الله هـو المشرع ومن حقه ان تطاع اوامره . ومن واجب المؤمن ان يمتثل امر الله من غير تردد ، او تشكـك .

ومن هنا نرى ان الاسلام هو اول داع الى الخير لذات الخير ،والى الفضائل لانها فضائل . وان دعوته الخلقية ، تقوم على اعداد روح خاص ، يطهر النفس ويزكيها ، ويجعلها محلا لتقبـل الامر بفعـل الخير والتزام الفضائل ، ابتغاء وجه الله ، والتقرب الى الله ونشدان الكمال .

وهذه الدعوة المثالية الى الخلق الكريم ، لم تعرف لهـا البشريـة صفة ومنهجا واضحا قبل الاسلام ، مما يجعلنا نقرر في غير تردد :

ان الاسلام هو استاذ جميع المذاهب الاخلاقية « الواجبـة » ، لا سيمـا المذاهب الحديثـة التي ظهـرت بعده ، والتـي فتنت بعض « المستغربين » من المسلمين .

فالاسلام ـ باتفاق العلماء في الشرق والغـرب ـ وجـه الحياة الانسانية كلها عند المسلمين وغير المسلمين ، وأثّر آثارا واضحة معترفـا بها في جميع العلوم والآداب التي انتجت نهضة اوروبا .

غير ان الاسلام يمتاز عن هذه الآراء الفردية ، بتحديد معنى الخير والشر ، تحديدا واضحا ليس فيه لبس ولا غموض . بينما تجد هـذه المذاهب غير متفقة على ما هـو خير او شر ، ولم يحدد مذهب مفهـوم

كلمتي الخير والشر تحديدا سليما واضحا يقبله العقلاء .

ولقد كانت عناية الاسلام عظيمة بتربية الخلق الفاضل في الفرد والجماعة ، وقد عبر عن هذه العناية ابلغ تعبير محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » .

وكان من خير ما امتدح الله به رسوله الكريم قوله تعالى : « وانك لعلى خلق عظيم » ، لانه تربية الله الذي اصطفاه ، وادبه فأحسن تأديبه :

وانك لتجد في كل آية من القرآن دعوة ، الى اصل من اصول الخلق الحسن . وتجد كل مبدأ اسلامي يرشدك الى نمط من انماط مكارم الاخلاق .

ولقد كان جواب العربي لمن يسأله عن دعوة محمد ، هو ان مهمة محمد عليه الصلاة والسلام ، مهمة اخلاقية اولا ، وهي تزكية النفوس وتطهيرها من ادران الفساد واوزار الوثنية ، اقرأ :

« كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة » .

« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

« خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم . ان صلاتك سكن لهم » .

وتبلغ هذه الروعة اقصى غاياتها ، عندما يرجع القرآن الكريم نجاح النبي عليه السلام في دعوته الى مسألة اخلاقية :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من

حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم في الامر » .

وافهم ما شئت بعد ذلك مهمـــة القرآن الكريم من قوله تعالى :

« ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم » .

وكما يمتاز الاسلام في العقيدة ونمط العبـادة ، يمتاز ايضا في تشريعاته للمعاملات الانسانية كلها عن جميع التشريعات القديمة والحديثة بمميزات اظهرها واجلاها ، ما اتفق عليه المنصفون الذين قارنوا الشريعة الاسلامية بالقانـــون الروماني ، من ان التشريع الاسلامي يمتاز بعنصر اخلاقي ، له صفة الالزام في كلياته وجزئياته ، من شأنه ان يحمل المكلف على الامتثال والتنفيذ للاوامر والنواهي ، من غير تردد فـــي الفعــل او الترك ، لانه يقوم بمـــا يقوم به ، على انه دين لازم يتعبد الله به . ومن واجب المؤمن ان يستجيب لله الذي يأمر بكل جميل ولا يأمر بالفحشاء لا على انه قانـــون بشري يخضع للجدل في سبيل اظهار وجه الخير والمصلحة فيــه . ولهذا العنصر الاخلاقي ، كانت الشريعة الاسلامية ــ عند فقهـــاء المقارنـــة ــ مستقلة غير مستمدة من التشريع الروماني .

واذن فتكاد تجد مهمـــة الاسلام ، ومهمـــة رسوله عليه الصـــلاة والسلام ، مهمـــة اخلاقية !

فما الاخلاق اذا لم تكن هي تهذيب النفوس وتزكيتها وتطهيرها ؟

ثم ما هو الدين اذا لم يكـــن تنظيمـــا للسلوك العام للانسان مـــع خالقه ، ومع بني أبيه ؟ وما الدين اذا لـــم يكن هو حسن الخلق ؟

للاسلام اذن منهج اخلاقي ممتاز ، تتمثله في كل آية من القـــرآن الكريم ، وكل حديث للنبي الكريم ، في كل امر ونهي ، وفي كل مبـــدأ من المبادىء . فاذا لـــم يكن للاسلام منهج اخلاقي في دعوته الى الخير

والجمال ، والتزام الفضائل ، بغيــة الكمال ، فكيف واين يكون هــذا المنهــج المستقيــم ؟

ما هذه المذاهب الاخلاقية التي تقرن او تقارن بالاسلام ؟ هل يراد ان تكون « خلفية الاسلام » الجميلة الواضحة ،مثل ما تدعو اليه المــذاهب الاخلاقية ؟ وهي آراء افراد غير معصومين عن الخطأ ، وهم مظنــة الهوى ولم يسلم واحد منهم من التجريح ؟

ثم هي بعد ذلك آراء مجروحة ، وكثيرا ما اتخذها اللاحقــون اداة سخرية بالســابقين . وهل يريد اخوانـنــــا « المستغربون » ان يكــون للاسلام مذهب في الاخلاق كمــذهب « زينــون » الرواقي او كمذهب « ابيقور » او كمذهب « كانت » او « سبنسر » ؟

وهل يريدون ان يخضعوا منهج القرآن الاخلاقي للجدل والتجريح على الطريقة التي يتناولون بها مذاهب هؤلاء الاخلاقيين ؟

ما بالنا نسمع اليوم اناسا ينسبون الاسلام الى مذاهب افراد فــي السياسة او الاجتماع او الاخلاق.فهل سر هذا هو الجهل بالاسلام او الكيد للاســلام ؟

نسمع مثلا « الاشتراكية الاسلاميــــــة » او « الديموقراطيــة الاسلاميــة » وليس للاسلام مذهب اخلاقي . فما هذا ؟

ان الاسلام لا يعرف الاشتراكية ، ولا يعرف الديموقراطية ، ولا المذهبية . وانمــا الاسلام دين وشرع ، له خصائصه ومناهجه التي يتميز بهــا في الحكم والسياسة والاجتماع والاقتصاد والاخلاق .

للاسلام كيان خاص و« شخصية معنوية » خاصة ، وهو سابق غير مسبوق في كل مــا قرره في مسائل الحكم وسياسة الشعوب ، ونظــام

الاجتمــاع البشري •

فكيف يستساغ عند بعض « المستسلمين » ان يغمطو الاسلام بنسبته الى افكار ظهرت بعده وتلمذت عليه ؟ وكيف ينسب السابق الى اللاحق والعكس هو الصحيــح ؟

ان من حق الاسلام ان يحكـّم في هذه الافكار وان تنزل هي عليه ، ان وجدنـا الى ذلك سبيلا :

« فــلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيمـا شجر بينهــم ، ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » •

عبد الحميد العبادي

كيف كان الرسول يسوس أصحابه

لقد تحدث المؤرخون فأكثروا من قدرة الاسكندر قديما ونابليون حديثا ، على اختيار الرجال واجتذابهـم واصطناعهـم ، فوصفوا صبر اصحاب الاسكندر ، على اهوال حروبه المتلاحقة ، ومشاق اسفاره البعيدة المترامية ، وبينوا كيف بلغ من اخلاص اصحاب نابليون له انهم عندمـا سيرهم لويس الثامن عشر لقتاله بعد فراره من جزيرة البا ، لم يسعهم الا ترك صفوفهم والانضمام الى نابليـون . فاضطر لـويس الثامـن عشر للخروج من فرنسا جملـة .

ولكن هؤلاء المؤرخين انفسهم يذكرون مع ذلك ان الاسكندر عندما ماوحت به فتوحه الى اقاصي المشرق واراد التوغل في بلاد الهند ، امتنـع عليه جنده ، وحملوه على أن يعود بهم ادراجه ، وان رجال نابليون لـم ينتصروا لقضيته بعد كسرته في واترلو . بل ان قائدا من اشجع الشجعان هـو المارشال (ناي) كما لقبه نابليون ، قد اضطرب في ولائه بيـن آل بوربون ونابليون ، فجر بذلك على نفسه البوار .

ليت اولئك المؤرخين اطلعوا علـى سيرة محمد بـن عبدالله ! اذا لعلموا ان الرسول العربي قد بذ الاولين والآخرين في فن اختيار الرجال واجتذابهم واستخلاص طاعتهم له ولدعوته في حياته وبعد مماته .

ذلك بأن محمد بن عبدالله لم يكن يتنزل من اصحابه منزلة ، فاتح مغامر ، ولا منزلة جبار يريد علوا في الارض ، ولكن منزلة الاب الشفيق ، والمعلم الحكيم ، والطبيب العالم بادواء النفوس واساليب علاجها .

وكان عليه الصلاة والسلام يروض اصحابه ويسوسهم على هذا الاعتبار وحده . ونحن نقص على القارىء من سيرته عليه الصلاة والسلام مع اصحابه

بعض ما يوضح هذه الرياضة ويجلو تلك السياسة •

* * *

عندما هاجر الرسول واصحابه من قريش الى المدينة ، رأى ان يحكم اسباب المودة بين المهاجرين والانصار • فعمد الى المؤاخاة بين الفريقين • فكـان يؤاخي بين المهاجري والانصاري • مرتبا على تلك المؤاخاة وجوب التناصر والتعاون في الحياة ، والتوارث بعد الموت •

وقد ظل هذا التوارث جاريا على هذا النظام الى ان شرعت احكـام الميراث ، فصار التوارث يجري عندئذ على مقتضاها •

الا ان فريقا من اهل المدينة يتزعمهم عبدالله بن ابيّ ، وقفوا مـن الدعوة الاسلامية وصاحبها ، موقف العناد والمعارضـة ، ونظـروا الـى الرسـول والمهاجرين نظرهم الى قوم دخلوا عليهم بلدهم وزاحموهم فيه، واستبدوا به من دونهم ، فكانوا يتطلعون الى الافلات من النظام الجديد والعود الى الحال السابقة في المدينة •

هؤلاء هم المنافقون كما سماهم القرآن الكـريم وعرفتهـم السيرة النبوية • ولقد لقي الرسول منهم عنتا شديدا ، ولكنـــه كان يداريهم ويحتاط منهم في اناة ورفق يستثيران منتهى الاعجاب •

من ذلك ما حدث في غزوة بني المصطلق في السنة السادسة للهجرة ، فانه لما فرغ الرسول من قتال بني المصطلق ، اقبل المسلمون على ماء هنالك يستقون منه ويسقون ، فازدحم على الماء واقتتل عليه رجلان ؛ احدهمـا يقال له جهجاه الغفاري ، كان اجيرا لعمر بن الخطاب • ويقال للآخر سنان ابن وبرة الجهني كان حليفا للانصار •

فصرخ الجهني : يا للانصار ! وصرخ جهجـاه : يـا للمهاجرين ! فغضب من ذلك عبدالله بن ابي،وعنده رهط من قومه وكان حاضرا من قومه لانهم

احلوا للمهاجرين ديارهم ، ولج به الغضب حتى قال :

« لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل » .

وهي المقالة التي سجلها القرآن الكريم . وبلغت مقالة ابن ابي رسول الله فاغتم لذلك غما شديدا . وكان عمر بن الخطاب عنده ، فأشار عليه بقتل ابن ابي ، فأجابه الرسول : « فكيف يا عمر اذا تحدث الناس بان محمدا يقتل أصحابه ؟ » .

ولكي يشغل الرسول الناس عن التحدث في هذا الامر ، امر من فوره بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن من عادته ان يسير فيها .

وراح عليه السلام واصحابه يطوون المراحل ويصلون الليل بالنهار سيرا وسرى حتى بلغوا المدينة . واذا بالحال قد تغيرت من جميع وجوهها .

فهذا عبدالله بن ابي قد اتى الى الرسول يحلف له انه ما قال ما بلغه عنه . وهذا ابنه يطلب الى النبي ان كان لا بد آمرا بقتل ابيه ، ان يتولى هو اي الابن قتله . فيقول له الرسول :

« بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » .

وهؤلاء رهط عبدالله بن ابي ، قد استخزوا لسلوكه ، واصبحوا كلما احدث حدثا ، هم الذين يعنفونه ويؤنبونه .

هنالك اقبل الرسول على عمر بن الخطاب وقال له :

« كيف ترى يا عمر ؟ اما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله ،لارعدت له آنف لو امرتها اليوم بقتله لقتلته » .

فقال عمر :

« قد والله علمت لامر رسول الله اعظم بركة من امري » .

* * *

والى القارىء مثلا آخر قد يكون ابلغ مما تقدم في بيان ما نحن في صدده •

رووا انه لما فرغ الرسول من صلح الحديبية ، رأى اكثر من كان معه ، ان الرسول عليه السلام اعطى في هذا العهد لقريش ، اكثر مما أخذ • فهم لم يدخلوا مكة في عامهم ذلك ، بل سيعودون من حيث اتوا•

كما قبل الرسول ان يرد على قريش كل من اتى اليه منها بغير اذن وليّه ، والا ترد اليه قريش من يأتي اليها ممن هو مع محمد •

وفوق ذلك قد رد الرسول الى قريش ، ابا جندل بن سهيل بن عمرو، وهو رجل مسلم ، انفلت الى جماعة المسلمين بعد تمام عقد الصلح •

وساور الناس غم شديد اشرف بهم على الهلاك ، حتى انهم عندما امرهم النبي ان ينحروا بدنهم ، ويحلقوا رؤوسهم لم يطعه منهم رجل واحد •

فدخل الرسول على زوجه ام سلمة ، وذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت له : اخرج ثم لا تكلم احدا منهم بكلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك •

فقام الرسول ، فخرج فلم يكلم احدا منهم كلمة حتى نحر بدنته ، ودعا حالقه فحلقه • فلما رأى القوم ذلك تواثبوا ينحرون ويحلقون•

وفي رواية ابن اسحق ، عن ابن عباس ، انه حلق رجال يوم الحديبية ، وقصر آخرون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يرحم الله المحلقين » •

قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟

قال : « يرحم الله المحلقين » •

قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟

قال : « والمقصرين » •

فقالوا : يا رسول الله ، فلم ظاهرت التراحم للمحلقين دون المقصرين؟

قال : « لـم يشكّوا » •

***

ويروون انه كان عليه الصلاة والسلام، قد خصص المؤلفة قلوبهم من قريش وقبائل العرب من غنائم هوازن بعطايا جسام لم يعط مثلهـا احـدا من الانصار ، فوجد الانصار في انفسهم حتى قال قائلهم :

لقي والله رسول الله قومه •

ودخل عليه سعد بن عبادة وابلغه رأي قومه ، فقال له الرسول :

« فأين انت من ذلك يا سعد ؟ »

قال سعد : ما انا الا رجل من قومي •

قال عليه الصلاة والسلام : « فاجمع لي قومك في الحظيرة » •

فلما جمعهم سعد اتاهم الرسول ، فحمد الله واثنى عليه بما هو اهله ثم قـال :

« يا معشر الانصار ! مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها عليّ في انفسكـم ؟ ألم آتكم ضلاّلا ، فهداكم الله ، وعالة فاغناكم الله ، واعداء فألف الله بيـن قلوبكم ؟ » •

قالوا : بل الله ورسوله امن وافضل •

ثم قال : « الا تجيبونني يا معشر الانصار ؟ »

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل •

قال : « اما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم ، اتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائـلا فآسيناك ،

اوجدتم يا معشر الانصار في انفسكم لوعة من الدنيا ، تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ؟

الا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحابكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الانصار ، ولو سلك الناس شعباً ، وسلكت الانصار شعباً لسلكت شعب الانصار . اللهم ارحم الانصار وابناء ابناء الانصار » .

قال ، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا :

رضينا برسول الله قسماً وحظاً . ثم انصرف رسول الله وتفرقوا .

* * *

من هذه المثل تتبين الاسس التي كانت تقوم عليها سياسة الرسول عليه السلام لاصحابه .

كانت سياسته هذه تقوم على جمع الكلمة والحلم والرفق ، فبذلك كان عليه السلام يقتاد القصي ، ويتألف النافر ، ويحمل المحسن على ان يزداد احساناً .

على ان الامر لم يكن مجرد تأليف وحلم ورفق ، بل كان من وراء ذلك كله الاسوة الحسنة والروح المتدفق ، والقلب الرحيم ، والخلق العظيم ، والعلم بطبائع النفوس واسرارها الذي لا يدرك كنهه ولا يسبر غوره .

عبد المنعم خلاف

الإسلام والمعركة الأبدية بين الخير والشر

القرآن ينزل المعترك الابدي بين الخير والشر في الارض منزلة الاعتبار والاعتراف به ، ويدعو معتنقي مبادئه الا يهملوا النظر الى هذا العراك وما وراءه من نتائج ، وان يحملوا انفسهم على الاخذ باسباب الاهبة للانخراط في سلك المحاربين في صفوف الخير ، حربا لا هوادة فيها ولا تخاذل ، ولا غفلة من ان الشر اذا وجد سبيلا الى السيطرة على الخير فلن يرحمه ولن يتركه للحياة .

انهما ضدان ابديان ، احدهما مبصر ذو رحمة ، والثاني اعمى ذو بطش شديد .. هما قانونان طبيعيان لهما ما لقوانين الطبيعة المادية من صرامة وآثار ، ولكن مجالهما النفس ذات العالم المائج الذي لا حدود بين امواجه الا ما يقيمه الفكر من حدود اليقظة والادراك ، والا ما تقيمه الدولة الرشيدة من وسائل التربية والتنبيه .

وكما ان الناس يخشون ان يمدوا ايديهم الى منبع كهربي خوف الصعق والاحتراق .. كذلك يجب ان يخشوا ان يمدوا نفوسهم واخلاقهم الى منابع الشر خوف الصعق والاحتراق والضياع بين قوى الكون العمياء ، التي ليس فيها الا بصيرة واحدة هي منطقة « الضمير » الذي هو قبس من روح خالق الوجود .

* * *

ليس في القرآن صوفية بلهاء تمحى عندها الحدود بين الخير والشر ، ويختلط عالماهما ، وانما فيه رحابة هي عفو القادرين وسماحة المربين الذين يعطون الطفولة البشرية حقها من فرص الاتعاظ الذاتي ..

وفيه سماحة الرعاة الذين يتركون القطيع يرتع في باحة الحدود

المرسومـــة ، ويغفــرون لـــه اللمم الاجتماعي الـــذي لا يضيـــر الاســس الاصيلــة للحيـــاة ..

ولكنهم مع ذلك يقظون غاية اليقظة للحدود ، لا يدعون فيها ثغرة ينحدر منهـــا اعداء الاجتماع : من قوى الشر والاثم والجريمة والجهالة التي تتخطف النفوس البريئة كما تتخطف الذئاب والثعـــالب الحمـــلان الوديعـــة والاطفال الرضيعة في غفلة من الحراس .

القرآن يعتبر الشر كنمر غاشم يهجم دائما ولا يرتد ، فهو يهاجمه في اغلب آياته ممثلا في اشخاص الفجار والجناة على الحياة ، الذين هـــــم ثمرات معطوبة ، من ثمرات الانسانية ، تنقل العطب والفساد والمحق الى سائر نبات الحقل الانساني ، فيجب تطبيبها اولا واعطاؤها فرص العـــلاج والشفاء ، فان صحت كان في صحتها نماء وبركات وزيادة في المحصول الانساني الصالح ، وان لم تصح كان من الواجب اهدارها وبترها ، وحسم دائها ان يتسرب الى الثمرات الصحاح التي فيها رجاء الحياة وتقـــــدم خطواتهـــا في طريق النمو والارتقاء !

* * *

هؤلاء يريدون ان يجعلوا الدين صورة من التسامح المطلق علـــى دواعي هذا المعترك ، انهم لم يفقهوا الحياة فلم يفقهوا الدين .

لم يفقهوا الحياة لانها ما زالت ولن تزال تكذبهم وتأخذ الناس الى غير مـــا يتوهم هؤلاء ، لان المعترك يزيد على الايام حدة وشدة وتعقدا وايغـــالا في ساحات الصراع والصدام والمنافسة والمغالبـــة .. وهؤلاء يئنون فيه انين نساء ضعاف او حملان وديعـــة تثغوا بين الذئـــاب ، فتمزق انيـــاب الذئـــاب حناجرهـــا !

ومعركة الحياة هذه لها عذرها الواضح في انطلاقها الآن بدون قيود

الاديان ، لان اغلب الاديان السائدة تدعوها الى غير ما في طبيعتها .. وقد صارت حياة قوية السلطان ، بالغة الحجج والآثار ، واصلة الى اعماق النفوس ، تنتزع حججها من دماء الناس التي تغلي في العروق ، وشهواتهم التي تحتدم في الابدان ، ومن روابط الشبكة القوية التي تربطهم بالارض ربطا وثيقا .

فكيف تضحي الانسانية بكل هذه الدواعي القاهرة وتعصاها ، وتنحاز الى تلك الاصوات الخافتة التي وقف اصحابها على شاطىء اللجة يقولون للغرقى والسابحين : مالكم هكذا تغرقون ... ! سيروا على الماء بالاقدام .. واعبروا المحيط بدون ابتلال ..

لا ! لا بد من نزولكم ايها الدعاة الى اللجة تصارعون امواجها ، وتحسون ثقل اعبائها ، وتقاسون عذاب الخبط فيها بالايدي والارجل ، ويصيبكم البهر والاعياء من شهيق وزفير متلاحقين ، لتنجوا هؤلاء الغرقى بايديكم ، وبسفن الانقاذ واطواف النجاة العملية ، بدل ان تحاولوا نجاتهم بالكلام ومد الايدي اليهم من الشاطىء البعيد .

وقد كان اكثر الذين حملوا الاسلام الاول تجارا وسياسيين ، وفرسانا تمرسوا باسباب الحياة وعركوها اختبارا وابتلاء ، ولم يكونوا بعزلة عن العقل العام للعرب والامم المجاورة لها ولم يكونوا عجزة او معتوهين او اذلاء وذوي عاهات ضاقت بهم سبل العيش ، فجاؤوا يحترفون الدين للارتزاق بحكاية قضاياه ومسائله ، بل حملوه الى الدنيا حمل جهاد به في كل سبيل من سبل الحياة العملية المادية ، ونزلوا بكلماته الى الاسواق والحقول والمصانع والجيوش ، كما درسوها في المعاهد والمساجد .

* * *

يجب ان يشعر الذين يؤمنون بالمثل العليا ، انهم مضطرون الى مواجهة الحياة الحالية بالوضع الآتي :

ان يكافحوا عوامل الشر والفساد بوجوه كالحة كوجوه اهل الشر والفساد ويجاهدوها بمنطق الخديعة والقسوة وادراك الموقف ، ولا يبيتون البلاهة والغفلة عن مقتضيات الحال ..

وان يحتضنوا بيدهم الاخرى المثل العليا ، وينموها في مناطق نموها المأمونة ويخلوا اليها يحدثونها ويكرمون اهلها ويصطفون معهم منطق السمو والكمال والرحمة ، والاغتفار ومراعاة مقتضيات الحال كذلك .

اي انهم يكونون كمن يضم ابنه بيد رفيقة لينة ، ويكافح عدوا يهاجمه ويهاجم ابنه بيد اخرى قاسية باطشة ، فلا بد له ان يكون يقظ الفؤاد لما يقوم به من عمل مزدوج متناقض .

وهذا الازدواج في الشخصية ، الذي تحتاجه البيئة في عصور الانتقال والاضطراب ، يكلف اصحابه ثمنا غاليا من التمزيق والتبضيع ، ومشقة السير بخطوتين في طريقين في آن واحد :

الا انه موقف لا بد منه لكل نفس آمنت بالحق في زمن الكفر به ، وانتدبت قواها للدفاع عنه ، وتريد في الوقت ذاته الا تضيع في معركة الحياة المعاشية في امم لا تدرك احبابها وخدامها الحقيقيين ، ولا ترحمهم ولا تبالي بهم في اي واد هلكوا وهلكت ذريتهم من الجوع والحرمان !

***

لقد جابهت نفس رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، العالم الوثني والكتابي بروح سامية رحبة حسنة الظن في اوائل عهدها بالدعوة ، وحسبت ان الحق الواضح عندها ، لا بد ان يكون واضحا لديهم

فيسرعوا اليه ولا يكلفوهـــا عناء في قبوله ، فكـــانت تفيض بالسلام والكرم مع اعدائه واعداء الحق .

ولكنه بعد ثلاثة عشر عامـــا ، تبين ان الشر عنصر عريق خالـــد لـــه جنوده وسدنه وكهان يعيشون به ، ويدافعون عنه ، كما يعيش هو للخير والحق ويغني لهمـــا ويدافع عنهمـــا .

وقد مكث تلـــك الثلاث عشرة سنة يدعو بالحسنى ، ويقلب الحجج على كل وجه ، ويتحمل الاذى ما كان يجب ان يفتح العيون وينبه الاذهان الى ان رجلا يتحمل مثل ما تحمله جدير ان يكون موضع الاعتبار والتفكير والاقتناع بصدق دعوته والقفو على آثاره .

ولكن دولة الباطل وسدنها وكهانها دولة فطنة تنظر بعيـــدا . وقـــد علمت من اول يوم ان مـــا يدعو اليه محمد هو الحـــق عـــدو مصالحهـــا الدنيوية ، فان هي اطاعته ، فقدت عزها وعرشها وكل مـــا لها مـــن جـــاه وسلطان . فاعلنت العصيان من اول ساعة ، وقـــال قائلهـــا ابـــو لهب : « تبا لك ألهذا جمعتنا ؟» . كمـــا قال ايضا : « خذوا على يديه قبل ان تجتمع العرب عليـــه » .

ومكثت امواج الدعوة للحق تنكسر على صخرة الباطل الصماء ، ولا تنال منهـــا الا حصى صغارا .

عندئذ استيقظ الحق الاعزل لنفسه وعوامـــل ضعفـــه ، ورأى الله لرسوله ان العمر يذهب سدى مع مخاطبة هذه الصخرة الصماء ،فليلتمس سببا غير الكلام لتحطيمها ودفعها عـــن طريـــق دعوتـــه ، ولدفـــع اذى الباطـــل عن الحق واهله .

فاستيقظي اذن يا عوامل التدبير للقوة والغضب بعد ان طال نومك

وليكن الحق المسلح والسياسة المهاجمة والسباق الدنيوي بيننا وبين قريش •

ولتكن حرب لا للغزو ولا لتحطيم حرمات الحياة ، وانما لصيانة حرمات الحياة ، وحفظ عوامل نموها نقية قوية •

وليكن التدبير والدهاء بجوار البراءة والطهارة والصراحة ، ليكون لدولة الايمان حارس على كل باب يمكن ان يدخل منه الاعداء المتربصون ، الذين ان يظهروا عليه لا يرقبوا فيه حرمة ولا ذمة •

وكان ما كان من استجابة الحياة كلها لدعوة الحق المسلح ، والعدل المجنح ، بعد ان رآهما الناس في منظر عجيب تجتمع عليه النظار عبّاد الجمال وعبيد العصا •••

* * *

فهل للمسلمين ان يفقهوا ان المثل الاعلى الاسلامي ، نزل في ارض حرة بين قوم احرارا اقوياء ، يتصلون بالطبيعة اتصالا مباشرا ، ليكون كاملا وراء قواعد العقل الكامل ، وآمال القلب الكامل ، الذي يحس الحياة في الطبيعة احساسا سليما عميقا رحبا ،فكان مجال الكمال الاجتماعي والفكري والتعبدي فيه اوسع مجال تنقطع فيه انفاس الحكماء والاصفياء والشرعيين والمصلحين الاجتماعيين ؟ !

محمد أحمد الغمراوي

حول عظمة الرسول

كتب الكاتبون في عظمة الرسول ما كتبوا ، فلم يبلغوا الا بعض قدره صلى الله عليه وسلم ، وانما يصف كل من ذلك ما يطيق .

فمن المحدثين من قارنه صلى الله عليه وسلم بابطال التاريخ ، وخرج من المقارنة ، بانه صلوات الله عليه ، بطل الابطال . فأخطأ بالمقارنة وبالحكم سواء السبيل ، لانه اوهم بهذه المقارنة وبهذا الحكم ، ان الرسول والبطل من قبيل واحد ، وليس كذلك . ولا يمكن ان يكون كذلك ، فشتان بين بطولة البطل ورسالة الرسول .

فرسالة الرسول صلوات الله عليه ، خرّجت الابطال وربّت عظماء الرجال . بل لم يعرف التاريخ عظمة في ابطاله تضارع او تقارب عظمة اصحاب الرسول رضوان الله عليهم .

واين في التاريخ — غير تاريخ الرسالة — من سما بنفسه عن الدنيا وعن الهوى كما سما اصحاب الرسول ؟

بل اين — الا في تاريخ الاسلام — من دانت له الدنيا بالفعل ، فأعرض عنها وعن زخرفها ، غير معتزل في جبل ولا مترهب في صومعة. بل حاكما بين الناس بالعدل وسائسا اياهم بالحق والحزم ، من غير ان يرزأهم عن دنياهم الا بقدر القوت ؟

ان بطولة ابطال التاريخ تتضاءل اذا قيست ببطولة اصحاب الرسول فكيف يمكن ان يحشر الابطال مع الرسول وبينه وبين اصحابه من البعد ما بين اصحابه وبينه صلوات الله عليه .

وفي الناس من التمس في العبقرية وجه الثناء على الرسول وتقديره، ولو جعله عبقري العباقرة ، وما وفى بل ما زاد على ان جعله فردا من نوع متجدد ، وان يكن نوعا نادرا في الناس •

فالذي يثني بالعبقرية كالذي يثني بالبطولة ، كل قد غفل عن ان العبقريين والابطال ، يوجدون في كل زمان • ولا كذلك الانبياء والرسل ، بله اعظم الرسل وخاتمهم سيدنا محمد صلوات الله عليه •

ثم في الناس من جاوز ذلك فزعم انه يثني على الرسول ، حين ينسب ما أجرى الله على يديه ، او ما اوحاه الله اليه ، كأن ذلك من عمله ، او كأنما بلغه باجتهاده ، ويجعله بذلك اعظم العظماء •

فكأنه صلى الله عليه وسلم ، لا يكون اعظم العظماء ، الا اذا كانت الرسالة من عنده ، او كان وحيها من وحي قلبه وفكره ، كالذي يجري في قلوب اهل الاصلاح والفكر وعلى عقولهم •

وليس هؤلاء ولا اولئك مهما ارتقوا ببالغي ادنى مراتب الرسالة في انفسهم او في اثرها في الناس •

ان كل ثناء على الرسول بما ينقص من رسالته ، جهل بالرسول وانتقاص له • وكل تصوير للرسالة بما يبعدها عن المعنى الالهي الحقيقي المعروف في الاديان ، ويدنيها من المعنى الانساني المجازي المعروف في كلام بعض الناس ، هو ستر للرسالة وتعطيل لها يمهد في النهاية للتحلل من الدين •

والمسألة ليست مسألة رغبة او رأي ، ولكن مسألة حقيقة وواقع • فالرسالة بالمعنى الديني ثابتة للنبي صلوات الله عليه ، وليس في هذا شك • وكل ما كان له صلى الله عليه وسلم من عظمة فهو من رسالته

واليهـا وليس في هذا شك ايضا .

فقد لبث في الناس عمرا من قبلها لم يعرف فيه بعظيم . ولمـا كانت رسالته صلى الله عليه وسلم ، اعم الرسالات واتمها ، كان هو صلوات الله عليه ، اعظم الرسل اذ اداها ، واكمل البشر . وهذا معنى يضيـق عنه ان يقال اعظم العظماء .

لقد لبث صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة عمرا في الناس فكانوا يثنون عليه كمـا يثنون على فاضل فيهم . فلما اكرمه الله بالرسالة ،واكرم الخلق به ، تطور خلقا آخر وانسانا آخر ، وتطورت امته به امة اخرى في الامم ، وتحقق للانسانية مثلهـا العملي الاعلى فيه وفي امته في عهده .

ان من يعرف معنى رسالة الرسل ولم يلم بطرف كاف من حقيقتها ،لا يرى فوقها لانسان مرتقى،ولا يخطر له ان وراءها في مجال العظمة وراء .

لكن الالفة حالت بين الناس في هذا العصر الحديث وبين حقيقـة تقديرهـا كما تحول الالفة بينهم وبين حقيقة تقدير نعمة الله عليهم فـي وجـود الشمس والقمر والماء والهواء والشجر والسمع والبصر وسائـر ما انعم الله عليهم به في الفطرة ومظاهرها وآياتها .

ان هذه الفطرة مظهر قدرة الله سبحانه وعظمته ، وفيض حكمتـه ورحمته ، فهي منه سبحانه على الناس نعمة ، وهي على وجوده سبحانـه دليل ليس وراءه دليـل .

فما فيها من سر يبهر ، انما مرده اليه سبحانه . وما فيها من عظمة تقهر ، انما مستمدها منه سبحانه .

فعظمة العظيم في الوجود مرجعها الى موجد الوجود . هو اوجد وهو افاض على كل موجود ما افاض من عظمة ، بما اودع فيه من سر ،

وبما فطره عليه من سنن جلت عن ان يغيرها او يبدلها مخلوق في الارض

وبما فطره عليه من سنن جلت عن ان يغيرها او يبدلها مخلوق في الارض او في السماء •

فاذا مددت هذا التفكير مدا ينقله من فطرة ما يحيط بالانسان الى فطرة الانسان ذاته ، وتصورت ان خاطر الفطرة سبحانه ، قد اختص واحدا من الناس ، بوحي مباشر ورسالة الى البشر يبين لهم بها سبحانه السنن التي خطر عليها ارواحهم ، وناط بها وباتباعها عزتهم وصلاحهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة •

اذا تصورت اصطفاء خالق الخلق لانسان رسولا على هذه الصورة ، ايقنت ان ليس يداني مقامه في الناس احد وان عظم ، وادركت عظيم رحمة الله ، وعظيم نعمته على البشر في ذلك الرسول •

لكن مجرد احاطة الانسان بسنن الله في النفس والروح والاجتماع على يد رسول ، لا يكفي • فقد يخطىء الناس الفهم والتطبيق •

فكان من حكمة الله ورحمته ، ان جعل رسالة الرسل تشمل شقّي التبليغ : تشمل التبليغ النظري على لسان الرسول ، والتبليغ العملي بالحياة العملية للرسول •

فانظر الى النبي او الرسول — اي نبي من الانبياء ، واي رسول من الرسل — ما اثقل ما حمل وما اعظم •

كلفه الله بتبليغ دين للناس على الوجه الحق ، ثم كلفه كغيره بالعمل بالدين كما انزل ، لا يحيد عنه ولا يخطىء ، لان الخطأ منه ليس كخطأ من احد •

فالخطأ العمد منه في القول او العمل كذب على الله ، والخطأ غير العمد ان وقع منه لا يقر عليه بل ينبهه الله اليه • ويبلغ هو التنبيه الى

الناس حتى تتحقق حكمة الله من النبوة والرسالة ، وحتى لا يلتبس على الناس باطـل بحق في ديـن الله .

ومن هنا يمكن اتخاذ معايير عدة لتقدير عظمـة الانبياء والرسل ، احدها استنباطي يتعلق بما ينبغي ان يكون عليه النبي او الرسول ، حتى يصلح لتلقي الوحي من الله سبحانه . والباقي معايير تكاد تكون كميـة في طبيعتهـا لانهـا تتعلق بمقدار ما يبلـغ الرسول من قول ، ومقدار ما تقتضيه الرسالة منه من عمل ، ومقدار ما لاقى في سبيل التبليـغ من مشاق واذى ، ومقدار صبره على الاذى في سبيل الله . ومقدار تعـدد نواحي الحياة التي جاء الدين ليشرع لها وليرقى بها ، ولينظمها طبق سنن الله فـي الفطرة . ثم هناك معيار ايجابي آخر ، هو ما أصاب الرسـول من نجـاح في رسالتـه كمـا يبدو من آثارهـا في الناس .

فهذه معايير عدة صالحة لان تكون حسابية كما ترى ، وتطبيق اي من هذه المعايير ، يحتاج الى احاطة وجهد وتوفيق من غير شك .

لكنا لسنا في حاجة الى التطبيق التفصيلي لتبيين ، ان محمـد بن عبدالله صلوات الله عليه ، هو اعظم الرسل حقا واكمل البشر .

فرسالته اعم الرسالات وارقاها ، لم تدع ناحية من نـواحي الحياة الانسانية للفرد وللجماعة الا شملتها بتشريع ، ومع ذلك فقد بلغها صلوات الله عليه في نحو ثلاث وعشرين سنة احسن تبليغ وابينه وأتمه ، بالقـول والعمـل .

فالقرآن الكريم هو ما هو ليس للنبي منه حرف ولم يسقط منـه حرفـا . والسنة الكريمة هي مـا هي تفسر القرآن ، كـلام الله تفسير صدق بالقول والعمل . واثر الاسلام في الناس في عهد النبي ، وفـي

الانسانية من بعده لا يزال يعجب به العاجبون .

ان من العجب العجاب ان ينهض انسان أيا كان بكل ما في الاسلام من تكاليفه وتعاليم وتشريع .

ان الانسانية كلها افرادا وامما ، لم تستطع نهوضا بكل ما كلفها الاسلام ، بعد الحقبة الاولى التي طبق فيها الاسلام اتم تطبيق في نصفها الاول في عهد الرسول ، واقرب تطبيق في نصفها الثاني في عهد الخلافة الراشدة .

فكيف استطاع محمد صلوات الله عليه ، ان ينهض بعبء الاسلام كله في نفسه وفي الناس ، حتى لم تجد ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها وصفا له الا قولها : « كان عمله ديمة » و « كان خلقه القرآن » .

أشهد ان محمد بن عبدالله هو رسول الله حقا . اذ كيف يقوى « على سيرته صلى الله عليه وسلم ، الا رسول ، ورسول محص الله فطرته ومحضها ، واعدها وامدها ،واستخلصها سبحانه من بين البشرية كلها طبق سننه في الاستخلاص والاعداد ، حتى اذا آن الاوان وجد في البشر انسان واحد ، كان هو وحده الصالح لتلقي الرسالة العامة الكاملة ، وقوي هو على العمل بها ، اصولها وفروعها في نفسه وفي الناس.

هذا هو المقياس الحق لعظمة الرسول الكريم : انه وحده نهض بما كلفت به الانسانية قاطبة ، فلم تستطعه كله . وتفرق ما استطاعه صلى الله عليه وسلم في الناس اجمعين ، ينهضون به جملة ان استطاعوا ، ويتأسى المتأسي به في ناحية يلتزمها ، فيصبح في الناس مثلا من امثلة الكمال .

وبعبارة اخرى ، ان سنن الله سبحانه التــي يتحقق بهـــا الكمال الانساني ، قد تحققت فيه صلوات الله عليه ، فصارت حقيقة واقعة فــي الكون ، مجتمعة في فرد ومنتشرة في امة . وصار ذلك الفرد هو المثــل الاعلى للانسانية ، لا يمكــن ان يبلغه الناس على مر الزمان وان اجتهدوا

وبعبارة اخرى ، ان سنن الله سبحانه التــي يتحقق بهـــا الكمال الانساني ، قد تحققت فيه صلوات الله عليه ، فصارت حقيقة واقعة فــي الكون ، مجتمعة في فرد ومنتشرة في امة . وصار ذلك الفرد هو المثــل الاعلى للانسانية ، لا يمكــن ان يبلغه الناس على مر الزمان وان اجتهدوا
ولكنهم يقربون منه شيئا فشيئا كلما اجتهدوا .

الدكتور عبد الوهّاب عزّام

مِن أخلاق القرآن

العفو خلق يسمو بصاحبه عن الانتقام ، ويكبر به عـن المجازاة ، ويتعالى عـن ان يلقي الشر بالشر ، ويجزي السيئة بالسيئة .

العفو خلة تؤثر الرحمة على العقاب ، وتحل المودة محل العداوة ، والوئام محل الخصام . ترى الرجل يؤذي في نفسه او ماله ، فاذا قدر على خصمه ، استكبر ان ينزل اليه فيأخذه بجريرته ، وآثر ان يغفـر ويرحم ، ووجد في هذا الاحسان من العزة والعظمة والطمأنينة مـا لا يجـد في الانتقـام ، ولقاء الجناية بجزائها .

وانما العفو عند المقدرة . فليس الذي يصبر على الضيم ، ويخضـع للقوة ، ويستسلم للظلم عفوا ، ولكن خائفا ذليلا ، رحـم اللـه ابا الطيب المتنبي الذي يقـول :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجىء اليها اللئـام

وقد قال تعالى في وصف المؤمنين :« والذيـن اذا اصابهم البغـي ينتصرون » . وقال بعض المفسرين بذلك انهم كانوا يكرهون ان يستذلوا فـاذا قدروا عفـوا .

وعظماء الناس يؤثرون العفو ما لـم يجـدوا فيه مفسدة لامـر من امور الديـن والدنيا . وقد عرف بذلك كثير من ملوك المسلمين ولا سيما الخليفـة المأمون العباسي .

ورويت في العفو عند المقدرة اخبار تنبىء عما يملك قلب الرجـل العظيم ، من الحلم والعفو في الخطوب الجسام . كما اثر مـن استعطاف المؤمنين في مقام العقـاب ما يذهب بالحفيظة ويوجب المغفرة .

كانوا يرون العفو وسيلة الى استصلاح النفوس وازالـة الاحقاد ،

واحلال الوئام محل الخصام فيؤثرونه على الانتقام .

قال رجل لسليمان بن عبدالملك : « ان القدرة تذهب الحفيظة ، وقد جل قدرك عن العقاب ونحن مقرون بالذنب . فان تعف فانت اهل للعفو ، وان تعاقب فبما كان منا » .

وقال آخر لبعض الامراء : « اسألك بالذي انت بين يديه اذل مني بين يديك ، وهو على عقابك اقدر منك على عقابي ، الا نظرت في امري نظر من برئي احب اليه من سقمي ، وبراءتي احب اليه من جرمي » .

وقال بعضهم : « ان عاقبت جازيت ، وان عفوت احسنت ، والعفو اقرب للتقوى .

والقرآن الكريم يحث على هذا الخلق الكريم ويهدي الناس الى هذه الخلة التي تلقى جهل الجاهل بحلم العفو ، وشر المسيء بخير المحسن .

سمى الله تعالى نفسه العفوّ ، قال :« فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفوّا غفورا » .

وفي آية أخرى :

« وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » .

« ان تبدوا خيرا او تخفوه او تعفوا عن سوء ، فان الله كان عفوا قديرا » .

وقد امر الله سبحانه الناس بالعفو فقال للرسول صلوات الله عليه:
« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .
ويقول تعالى :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا

من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر » .

ونهى سبحانه ، ان يعاقب المسيء بحرمانه من الصدقة والبر فقال :

« ولا يأتل اولو الفضل منكم والسعة ان يؤتوا اولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ، الا تحبون ان يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم ».

واجاز القرآن المجازاة بالعدل ولكن جعل العفو اقرب للخير فقال :

« وان تعفوا اقرب للتقوى » .

كما قال في وصف المؤمنين :

« والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون،وجزاء سيئة سيئة مثلها،فمن عفا واصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم . ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور » .

وقد اشاد القرآن بالعافين عن الناس وبين عظم جزائهم في قوله تعالى :

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » .

وكانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عملا بامر القرآن وتأدبا بآدابه . قال رسول الله :

« امرني ربي ان اصل من قطعني واعفو عمن ظلمني »

فانظر اليه يوم فتح مكة والجزيرة العربية في سلطانه ، وصناديد

قريش طوع امره ، وقد لقي ما لقي من المشركين منهم ، اكثر مـــن عشرين عامـــا ، وفي كل بقعة من مكة والمدينة ، ذكرى ما لقي مـــن ظلم وعدوان واذى ، وفي كل جماعة من قريش رجال قد قسوا عليه وعلى اصحابــــه ونالوا منه ومن دينه ، وصدوا عن دعوته جهد طاقتهم .

فما مد اليهم يوم الفتح والقدرة يدا بعقاب ، ولا جازاهم بما فعلوا ولا باقل مما فعلوا ، بل عفا عنهم عفوا عاما شاملا . ونـــال اكبـــر اعدائه اعظم نصيب من عفوه ورحمته . قال عليه الصلاة والسلام :

« يا معشر قريش ما تظنون اني فاعل بكم ؟ »

قالوا : خيرا . اخ كريم وابن اخ كريم .

قال عليه الصلاة والسلام : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وفر صفوان بن امية اعدى اعدائه خوفا من ذنبه ويأســا من العفو ، فأرسل وراءه النبي من يؤمنه واعطاه عمامته امارة الامان .

فلما طلب منه ان يجعل له الخيار شهرين ليدخل فيمـــا دخـــل فيـــه الناس او يهاجر قال : انت بالخيار اربعة اشهر .

ولما اجتمعت عليه قبائل هوازن بعد الفتح وأرادت ان تؤلب عليـــه القبائل ، وترد فتح مكة هزيمة ، خرج الرسول لحربها وكانت واقعة حنين التـــي لقـــي فيها المسلمون ما لقوا من الهزيمـــة اول الامر .

ثم وثب الرسول وانحاز اليه الجاد اصحابه ، حتى انزل الله سكينته ونصره . فلمـــا ظفر بالقوم وقد عظمت جنايتهم ، جزاهم بالاساءة احسانا وبالذنب عفوا . يقول الطبري :

اتى وفد هوازن رسول الله صلى عليه وسلم وهو بالجوانـــة وقـــد اسلموا فقالـــوا يا رسول الله انما اهل وعشيرة ، وقد اصابنا من البلاء ما

لا يخفى عليك ، فامتســن علينـــا منّ الله عليك •

فقام رجل من هوازن •••فقال : يا رسول الله انما في الخطائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك (يعني انهم قوم حليمة مرضعــة الرســول) :

أمنن علينا رسول الله في كرم   فانك المرء نرجــوه وننتظر

فقال رسول الله : « ابناؤكم ونساؤكم احب اليكم ام اموالكم ؟ »

فقالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين احسابنا واموالنا ، بل ترد علينا نساءنا وابناءنا ، فهم احب الينـــا •

فقال عليه الصلاة والسلام : اما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهــو لكم • فاذا انا صليت بالناس فقولوا انا نستشفع برسول الله الى المسلمين ، وبالمسلمين الى رسول الله في ابنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عنــد ذلــك واسأل لكــم •

فلما صلى عليه الصلاة والسلام بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي امرهــم بــه •

فقـــال رسول الله : اما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم •

وقال المهاجرون : وما كان لنا فهــو لرسول الله •

وقالت الانصار : وما كان لنا فهو لرسول الله •

وقال الرسول : اما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم فــله بكل انسان ست فرائض من اول شيء نصيبــه • فردوا الـــى الناس ابنـــاءهم ونســـاءهم •

ذلكم مثل من امثال تبين عن خلق رسول اللــه ، وهو الخلق العظيم الذي اوحاه اليه القرآن ، وانما تتجلى عظمة العظيم بالعفو حين المقدرة ،

والترفـــع عن الاقتصاص بالذنـــوب .

وذلكم تأديب القرآن امة القرآن ، وتعليم رســـول الله عباد الله . وانمـــا يريـــد القرآن ان يكون المسلمون اكبر من ان يذلوا اذا غلبوا ، واعظم من ان ينتقموا اذا قدروا .

يوسف الدجوي

من أخلاق الإسلام

الرحمة من اشرف الخصال واكرم الاخلاق ، وان الله لا يحب شيئا مثلما يحب الرحمة والتواضع ، ويكره شيئا مثل ما يكره القسوة والكبرياء.

وقد ورد في الحديث الصحيح : « ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » . وذكر من للعاقل ها هنا لتغليب الاشرف على غيره . واياك ان تفهم من ذكرها انك لست مأمورا الا برحمة النوع الانساني فقط ، فانك مأمور بالرحمة لكل ذي روح .

ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « في كبد كل رطبة صدقة » . واذا كانت امرأة قد دخلت النار من اجل هرة حبستها كما في الحديث الصحيح ، فلا غرو ان تدخل الجنة من اجل هرة ترحمها .

وقد ورد « ان الله رحيم ، وانما يرحم من عباده الرحماء » .ويقول الله سبحانه في الحديث القدسي : « سبقت رحمتي غضبي » .

وليس ذلك الحنان الذي تراه في قلوب الآباء والامهات في افراد النوع الانساني وسائر انواع الحيوان مما يسوقهم سوقا اضطراريا الى تعهد الولد ومراعاته في كل ما يجب له ، ولا تلك الشفقة التي تجدها من نفسك اذا رأيت مظلوما ضعيفا او فقيرا بائسا ، الا اثرا من آثار تلك الرحمة الالهية .

ومواساة الاخوان والجيران والشفقة على الفقراء والضعفاء من افضل الاعمال التي حث عليها الدين وندبت اليها الشريعة . وكل ذلك من آثار الرحمة الالهية ، التي قامت بها السموات والارض .

ولا محل هنا لتفصيل رحمته تعالى بك وفضله عليك بجري البحار

وتفجير الانهار ، وتيسير الانوار وخلق الليـــل والنهـــار ، وانبات النبات وبقيـــة الآيـــات ، وانواع النعم المتواترات •

وقد قال تعالى : « فانظر الى آثـــار رحمـــة الله كيف يحي الارض بعـــد موتهـــا » الخ ••

وبالجملة ففيك من الانسانية على قدر ما فيك من الرحمـــة ، وعلى قدر ما فيك من القسوة ، يكون بعدك من الله وانسلاخك من الانسانية ، فانك لا تتكمل الا اذا انفعلت نفسك بالكمالات ومكارم الاخلاق المرة بعد المرة ، وعلى قدر لين قلبك وسرعة تأثرك يكون قبولك لتلك الكمالات • واما ذلك القلب‌القاسي الذي لا ينفعل ولا يتأثر ، فانه بعيد جدا من الكمال، حيث كان غير مستعد للانفعال ولا قابل للنقش فيه •

وان من القلوب قلوبا كالحجارة او اشد قسوة وان من الحجارة لمـــا تتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقـّق فيخرج منه الماء • ومن كـــان بهـــذه الصفة فهو شقي في الدنيا والآخرة ، ممقوت لدى الله والناس •

وقد قرر الفلاسفة ان الانسان قد ينحط الى دركات هي اسفل من كل المراتب التي فيها انواع الحيوان واذا لا يكون انسانا في صورته •

وقد قال بعض الحكمـــاء : ان من الناس من تفسد انسانيته فيصبح غير انسان • وقد اشار سبحانه الى ذلك بقوله :

« لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذيـــن آمنوا وعملوا الصالحات » •

ويقول جـــل شأنه :

« والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » •

ولا يمكنك ان تصل الى درجة الكمال الا اذا لـم تكـن من ذوي القلوب القاسية والنفوس الجامحة ٠

واذا لو اتصف الناس بالرحمة لكانوا كاملين في انسانيتهم ، فلـم يفعلوا فعل الوحوش الضارية باخوانهم وبني نوعهم ٠

لو تمت الرحمة في النفوس لما التهمت الامم القوية الامم الضعيفة ، ولما فعلت بهم ما لا تفعله اقوى الحيوانات بأضعفهـا ، على ان الحيوان لا يفترس ابناء نوعه مهمـا كانت وحشيته وشراهته ٠

ولو تمت الرحمة في الاغنياء لما مقتهم الفقراء ، ولو تمت الرحمة في القضاة ، لما تأخرت القضايا السنين الطوال ٠ ولا لحق اربابـها شديـد النكـال وعظيـم الوبال ٠

ولو تمت فيك الرحمة لدعا لك جيرانك واثنى عليك اخوانك ٠ ولو تمت الرحمة فيك لبذلت النصح للعامة والخاصة اخلاصا لهم واشفاقا عليهم (والديـن النصيحـة) ٠

ولو تمت فيك الرحمة لاشفقت على القريب والبعيد ، ورحمت المبتلي والمعافى والانسان وغير الانسان ٠

بل نقول : لو تمت فيك الرحمة لكنت من المرحومين الذين يشفقون على انفسهم فلا يورطونها في الهلاك ولا يجلبون لهـا اعظـم الآفـات ، ويحرمونهـا من افضل انواع السعادات ٠

واجمال القول انه اذا استقام هذا الاصل للانسان في الدين ، استقام له سائره ففاز بخير الدنيا والآخرة ٠ فأزل من نفسك القسوة وكـن رفيق الفؤاد ٠ ولا تكن من غلاظ الاكباد فالراحمون يرحمهم الرحمن ٠

وفي الحديث الشريف : « لا تنزع الرحمة الا من شقي » ٠ وعـن

ابي هريرة قال : قبل الرسول صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وعنده الاقرع بن حابس ، فقال الاقرع : ان لي عشرة من الولد ما قبلت احدا منهم ، فنظر اليه رسول الله صلى عليه وسلم ثم قال :

« من لا يرحم لا يرحم » •

وعن ابي هريرة ايضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، واذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني،فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى فغفر له • قالوا يا رسول الله وان لنا في البهائم اجرا ؟ قال : في كل كبد رطبة اجر » •

وفي حديث نبوي آخر : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش (١) الارض » •

وفي الآية القرآنية الكريمة « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » اي لا تطيقوا حصرها ، ولو اجمالا فانها غير متناهية • كيف لا وما من فرد من افراد الناس وان كان في اقصى مراتب الفقر والافلاس ، ممنوا بأصناف البلايا مبتلى بأنواع الرزايا ، فهو بحث لو تأملته الفيته متقلبا في نعم لا تحد ، ومنن لا تحصى •

وان كنت في ريب من ذلك فقدر انه ملك ملك اقطار العالم ودانت له كافة الامم ،واذعنت اطاعته السراة ،وخضعت لهيبته رقاب القساة وفاز بكل مرام ونال كل منال ، وحاز جميع ما في الدنيا من اصناف

---

(١) خشاش الارض : هوامها وحشراتها .

الاموال ، من غير ند يزاحمه ، ولا شريك يساهمه • بل قدر ان جميع ما فيها من حجر ومدر يواقيت غالية ، ونفائس درر •

قدر انه قد وقع من فقد مشروب او مطعوم ، في حالـة بلغت منها ، نفسه الحلقوم فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع ما له من الملك والمال لقمة تنجيه او شربة ترويه ، ام يختار الهلاك فتذهب الاموال والاملاك بغير بدل يبقى عليـه ، ولا نفع يعود اليه ؟

كلا ، بل يبذل لذلك كل مـا تحويه اليدان كائنا ما كان ، وليس في صفقته شائبة الخسران • فاذا تلك اللقمة والشربة خير مما في الدنيا بالف رتبة ، مع انهمـا في طرف التمام ، ينالهمـا متى شاء من الليالي والايام •

او قدر انه قد احتبس عليه النفس ولا دخل منه ولا خرج ، والحين قد حان واتاه الموت • اما يعطي ذلك كله بمقابلة نفس واحد ؟

فاذا هو خير من اموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها • مع انه قـد ابيح له كل آن من آنات الليل والنهار •

وان رمت العثور على حقيقة الحق ، والوقوف على مـا جل من السر، فاعلم ان الانسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقـاق الوجـود ومـا يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائقة بحيث لو انقطع ما بينه وبيـن العناية الالهيـة من العلاقة لما استقر لـه القرار ، ولا اطمأنت بـه الدار ، الا في مطمورة العدم ومهاوى الهلاك •

لكن يفيض عليه من الجناب الاقدس تعالى شأنه ، في كل زمان مضى، من انواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجـــوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية ، ما لا يحيط به نطـاق التعبير ، ولا يعلم به الا

العليم الخبير •

وتوضيحه انه كما لا يستحق الوجود ابتداء ، لا يستحقه بقاء • وانما ذلك من جناب المبدأ الاول عز وجـل •

فسبحانك سبحانك اللهم ما اعظم سلطانك ، لا تلاحظـك العيـون بانظارهـا ولا تطالعك العقول بافكارها ، شأنك لا يضاهى واحسانك لا يتناهى • نسألك الهدايـة الى مناهج معرفتك ، والتوفيـق لاداء حقوق نعمتك ، لا نحصي ثناء عليك ، لا اله الا انت ، نستغفرك ونتوب اليك •

أبو بكر ذكري

مكارم الأخلاق
بين الأدب والفلسفة

— ١ —

فضيلة العدالـة

العدالة بمعناها العام ، كالعدل والاعتدال ، كلمة معناها : الاستقامة والاستواء والتساوي والعدل والتعديل : التسوية والتقديم •

والى هذا المعنى ترجع كلمة (العدالة) التي يراد بهـا الملكة النفسية المعدودة عند الاخلاقيين من امهات الفضائل الانسانية • والتناسب بين هذا المعنى الخاص المتعارف عند الاخلاقيين « وبين المعنى اللغوي السابق واضح بين ، لان الاعتدال النفسي الذي سماه الاخلاقيون عدالة وعدلا هو ايضا صورة من الاستقامة والاستواء والتساوي • وحسبنا ان نوضح هذا بمظهر القاضي المتصف بالعدالة ، اذ نرى مجلسه صورة مـن التعادل والانسجام يسوي فيه بين الخصمين في النظرة والاشارة وشتى ضروب المعاملة ، لا يتحامل على أحد الا للحق وفي سبيل الحق ، فيبدو مجلسه صورة متناسقة منسجمة ترتاح لها كل نفس شريفة فاضلة — وفي مقابل العدالة والعـدل والاعتدال — نجد الظلم والجور والجنف او ما هو بهذا المعنى •

وهذه الفضيلة عند الاخلاقيين نوعان : عدالة كلية — وعدالة جزئيـة خاصة تنشأ عن سابقتها ، وهم يعنون بالعدالة الكليـة اعتـدال الملكات الانسانية في مجموعهـا ما بين عقلية — وغضبية — وشهوية • بحيث لا يطغى بعضها على بعض • فالقوة العاقلة تسوس القوتين الاخريين وتمسك بزمامهمـا وتصرف امرهما بقدر ، فلا تدع لقوة الغضب ان تطغى وتثور لاتفه الاسباب او لغير سبب ، فيغدو صاحبها كلبا عقورا وسبعـا ضاريا

يهاجم غيره لسبب ولغير سبب ، حتى يبلـغ من العدوان غايته او يلقـى حتفه ـ ولا تدع كذلك لقوة الشهوة ان تثور وتطغى وتتخطـى القيـود والحدود ، فيصبح صاحبهـا بهيمة من البهم السائبة يتلوث بكـل وضر ، ويتمرغ في كل دنس ، ويلغ في كل حمأة • وبعض الاخـلاقيين يسمي النفس التي تنحرف هذا الانحراف بالنفس الخنزيرية ، نسبة الـى الخنزير الذي هو اقذر واشره ما عرف من انواع الحيوان •

كذلك لا تسمح القوة العاقلة لنفسها ، بأن تطغى على هاتين القوتين، فتعطلهمـا عما اوجدتها من اجله في الطبيعة الانسانية ، لان طغيان قـوة العقل وافراطها في قمع القوة الشهوية ينحرف بالمرء الى الرهبنـة والتأبل الذي هو اماتة للرغبات الجنسية وافراط في التقشف والحرمان • وطغيانها على قوة الغضب والافراط في كبحها ، ينحرف بالمرء الى الجبانة والانكماش والمهانة ، وفي هذا وذاك ما ينحرف بالشخصية الانسانية عن سنن العدالة ، وينأى بها عن طريق المثل العليا •

اما الحد الوسط من الانسجام والتناسب والتعادل بين هذه الملكات ، فهـو ان تعمل كل قوة من هاتيك القوى الثلاث في حدود ما خلقت له ، فلا يترك العقل الزمـام للغضب والشهوة ولا يبالـغ في كبحها الى حـد التعطيل ، ولا تقصر هي في الاستزادة من العلم والحكمة ، وبـذا تبلـغ الشخصية الانسانية كمال وجودهـا وتتحقق لها فضيلة العدالة الكبرى التي هي كنز الحكمـة واصل الفضائل السامية وسلـم الوصول الـى السعـادة •

ذاك هو مجمل ما شرعته عبقرية افلاطون واستاذه سقراط زعيمـي تعاليم الحكمـة اليونانية في القرنين الخامس والرابع ق•م• ليكون منارة

هدى للانسانية في مهمه الحياة الطامس الاعلام •

وفوق ما تقدم ، حاول افلاطون في كتابيه «الجمهورية» و«القوانين» تحقيق هذا النوع من العدالة الكلية في بناء المجتمع المثالي الذي حاول بشتى النظريات ان يضع اسسه وقواعده • ومجمل وصاياه في ذلك ان توضع الطبقة الحاكمة في مكانة القوة العاقلة ـ وطبقة الجند في مكانة القوة الغضبية ـ والطبقة العاملة المنتجة مكان قوة الشهوة ، وان يسود بين هذه الطبقات الثلاث الكبرى من التوازن والتعادل والانسجام ما عرفناه سابقا من التوازن بين هذه الملكات الانسانية الثلاث ، فلا تجور الطبقة بالعسف والظلم على الطبقتين الاخريين ولا تترك الزمام للجند يعتدون بسبب وبغير سبب ، بل غضبا للحق وللشرف فحسب ، ولا تجور الطبقات المنتجة : من زراع وتجار وصناع بترك الزمام لها تحصل اسباب الحياة من حلها وحرامها •

فاذا تيسر لمجتمع ان يتناسق مثل هذا التناسق ويتعادل ، فانه سيحقق لنفسه اعظم ما يمكن من السعادة • وكل انحراف عن هذا التعادل يكون سببا لشقاء المجتمع واضطرابه وتدهوره ، وما نظن المقام يتسع هنا لبيان مدى الحفاوة التي تلقيت بها هذه التعاليم على مر اربعة وعشرين قرنا من يوم مولدها ، حتى ايامنا هذه التي ما تزال ترمقها بالاجلال والاعجاب وقديما شاد عليها الاخلاقيون الاسلاميون ابدع التعاليم الاخلاقية •

واما العدالة الجزئية الخاصة : فهي التي تعرف عن الاخلاقيين والسياسيين باسم « العدل » تلك الكلمة التي يراد بها الانصاف في توزيع الحقوق بين الافراد والجماعات • وهذا هو العدل السياسي الذي يظهر لنا على الاخص في تصرفات الحكام والمسؤلين من موظفي الدولة•

وهذه الفضيلة الجزئية العلمية هي التي اثارت اهتمام ارسطو معلم الفلسفة الاول ، ولها كرس جانبا مهما من صفحات كتابه الخالد « علم الاخلاق الى نيقو ماخوس » وأثنى على المتصفين بها من المسؤولين عن الحقوق افرادا وجماعات ، وخص بالاعجاب تلك الصورة السامية التي تبدو في سلوك من ينصفون الناس من أنفسهم فوق انصافهم الاغيار بعضهم من بعض . وما أبدع قول ارسطو في تمجيد العدل :
« فما طلوع الشمس ولا غروبها بأحق منه بالاعجاب » .

ولعل أرسطو الفيلسوف العالم المشهور بتدقيقه العلمي الجاف الذي لا يقيم للعواطف وزنا — لم يتمالك نفسه أمام جلال العدل ان ينقلب شاعرا يبدي اعجابه بالعدل بهذا التعبير البديع الرائع .

وكذلك لعل الذين لم يوهبوا رقة الذوق الادبي ودقته ولطفه لن ينتبهوا الى دقة اختيار أرسطو لهذه العبارة فيقولوا : وأي اعجاب في طلوع الشمس وغروبها ؟ ان الشمس لتطلع كل يوم على الملايين من الناس دون ان تثير فيهم شيئا من الاعجاب .. ولو علموا ان طلوع الشمس وغروبها كل يوم على هذه الدقة التي عرفت بها في مواعيدها لتهب للعالم سر ما أودع فيها من أسباب الحياة ، بلا تمييز بين كائن وكائن ، انما هو ضرب من العدل معدوم النظير — لعذروا ارسطو في تعبيره ، ولعلموا انه هو أيضا في اعجابه بالعدل الى هذا الحد كان آية في العدل .

وفقنا الله أفرادا وجماعات الى العلم بالعدل ومكانته والتحلي به وهدانا سواء السبيل .

— ٢ —

وفضيلة العدالة صفة انسانية تتفاضل وتتفاوت تبعا لاسبابها

ومقوماتها في النفس الانسانية •

وهذه الاسباب والمقومات ، اما ان تكون امورا كسبية ارادية ، كالتعاليم والتهذيب في شتى ضروبه وأشكاله ، واما ان تكون امورا جبلية وهبات لا دخل للكسب فيها ، كرقة الطباع ، ودماثة الخلق التي تظهر احيانا مبكرة في الطفولة الانسانية ، اما بعامل الوراثة ، او بعوامل اخرى علمها عند مبدعها وخالقها تعالى • ولا بد لكمال فضيلة العدالة من تضافر هذه الاسباب والمقومات جميعا ، لاخراج شخصية انسانية ، كاملةالعلم،موفورة الذكاء والانتباه،مهذبة الغرائز تدرك تمام الادراك ، الغاية التي خلقت لها والطريق الموصل اليها ، وتثق كل الثقة في المثل العليا ومراميها السامية ، وتفرق بين مطالب الانانية الفردية ، ومبادىء الواجبات الاجتماعية بحدود واضحة المعالم ، وترتبط مع مجتمعها برباط وثيق من « الشعور المتبادل » أو ما يسميه علماء النفس وعلماء الاجتماع : « المشاركة الوجدانية » عالمة تمام العلم بما لها على المجتمع ، وما للمجتمع عليها من حقوق وواجبات ، وتشعر شعورا واضحا مطردا بما للانسانية من قيم ذاتية •

أما عندما تنعدم تلك الاسباب والمقومات كلها او بعضها ، فان صفة العدالة تنعدم كذلك من الشخصية الانسانية ، فتنزل من درك الى درك ، حتى تنحط الى مستوى البهمية والوحشية ، شأن الهمج الطغاة ، الذين لا يعيشون على اديم الارض ، الا ليمثلوا تنازع البقاء بأخس الوسائل وأقبح المظاهر • وهذه الحال هي ما يسميها بعض الكتاب : « شريعة الغاب » • وعندي ان شريعة الغاب تظلم ، اذ يشبه بها ذلك النوع البشع من السلوك الانساني ، ان حيوان الغاب لا يعدو غالبا الا بدافع من الحاجة الملحة ، والجوع المستمر ، على حين ان الظالمين من

بني البشر يندفعون الى ذلك بعامل بطر الغنى وأشر القـوة « ان الانسان ليطغى ، ان رآه استغنى » .

وان الذين تستهويهم شياطين الجهل والغـرور والادلال بالقـوة والجاه والوصول ليحسبون انفسهم دائما ، خلقا آخر لا يمتون الى العالم المحيط بهم بصلة ولا يربطهم به سبب ولا نسب . ولو رجع اولئك الاغرار الى طبيعتهم العاقلة وأجادوا التبصر والفهم ، لادركوا تماما أنهم مرضى الجهل والهوس والكبرياء وحب الظهور والتعالي الكاذب ، الذي يخيل اليهـم ان الانسانية كلها تحت مواطيء اقدامهم ، وعلـى أشلائهـا يجب أن تحتك هاماتهم بنجوم السماء ، شأن فرعون اذ قال : « يا هامان ابـن لي صرحا لعلي أبلغ الاسباب أسباب السموات ، فأطلع الى اله موسى ، واني لاظنه كاذبا . وكذلك زين لفرعون سوء عمله ... »

ولو أحسنوا التبصر اكثر فاكثر ، لعلموا ان هذا الشذوذ الخلقـي الغبي الوخيم الاعمى ليس الا مرضا لا يخفى على ذوي البصائـر مـن مخالطيهم ومواطنيهم ، وان من بين الانظار المصوبة اليهـم انظار ساخرين وضاحـكين ومستهزئين ، بينما يظن البلهاء انها جميعا انظار مكبرين ومعجبين .

ولو أمعنوا في التأمل لعلموا انهم لو اقتطعوا وافردوا افراد البعير المبعد عن اولئك الذين يحتقرونهم ، ويعدون على قدسية حقوقهم مـن اخوانهم ومواطنيهم ، لماتوا هزالا وكانـوا احقر من قلامة ظفر .. نعم .. لو امعنوا في التأمل وادركوا ذلك لهانت عليهم انفسهم وقدروهـا حـق قدرها ووقر في نفوسهم انهم كبقية الخلق ، من طين وماء ، وان عليهم للناس حقوقا بقدر ما لهم من واجبات ، وأن العدالة خير ميـزان من ينصفهم من الناس وينصف الناس منهم ، فيعيشوا سعداء ويعيش بهـم

مجتمعهم سعيدا قرير العين ، تسعهم جميعا رحمة الله وتفيض عليهم نعمه ظاهرة وباطنة .

وليست فضيلـة العدالة ــ لسوء حظ الانسانية ــ بالفضيلة التي يسهل الحصول عليها ، ويتأتى الوصول اليها بأيسر الاسباب وأهـون الـكلف . انها ، على الضد من ذلك ، وعرة المرتقى عالية الذروة . هي فضيلة الحكمـاء الحقيقين ، وصفـة الامراء النابهين ، وتـاج الملوك الموفقين ، وحلية الرؤساء البارزين ، وسلاح الساسة الناجحين . ولا بد للحصول عليها من منبت شريف ونسب زكي ووراثة نقية من الشوائب ، وهمة نزاعة الى المعالي . أما الظلم فما ايسره واكثره . انه كأشـواك اودية الموسـج ، يـكاد يسد على الانسانيـة مسالكهـا ، وينغص عيشها ويقضي مضجعها .

أما أثر العدالة في الجمعيات الانسانية ، فان التاريخ يرينـا بملء أعيننا أنها أم العمران ، ودعامة النجاح وسبيل التقـدم في مـدارج الحضـارة ، وأوثق وسيلة لبلوغ الامم أوج العظمة والمجد الباذخ ، كما أن الظلم كان ولا يزال سبب الفشل والخراب والانحطاط والضعـف والتدهور الى حضيض الهون .

ولقد ضرب الله سبحانه « تعالى » لنا في كتابه الكريم ، أمثال أمم بادت وأنقرضت بعامل الظلم والعدوان وتناسي فضيلة العدالة الساميـة « لقد كان لسبأ في مسـكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربـكم واشـكروا له ، بلدة طيبة ورب غفـور . فأعرضـو ، فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازي الا الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنـا فيها

السير،» سيروا فيها ليالي واياما آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ، وظلموا أنفسهم ، فجعلناهم احاديث ، ومزقناهم كل ممزق ، ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

كذلك ادال الله من دول بلغت اوج المجد ، ثم فسدت طوية أهلها فتظالموا وتقاطعوا وتقاسموا على أنفسهم كالقياصرة والاكاسرة الذين محا الله ملكهم ، وخلص العالم من طغيانهم ، اذ ارسل عليهم جنود عدله لسواء الاسلام ، فأورثهم ارضهم وديارهم وأموالهم ، وكانت عدالة الاسلام خير وسيلة لفض جموعهم وفتح حصونهم ، وخير ملجأ ينضوي اليه المظلومون من عامتهم وخاصتهم ، والظلم مرتعه وبيل وخيم لا يبقي ولا يذر . كانت العدالة اساس التعاليم المحمدية السامية ، ورباط مجتمعها الوثيق ، يقوم فيه الرسول الكريم باعظم واسمى قدوة عرفت لمعلم اخلاق على مر القرون .

كان يعدل بين الاسود والابيض والاحمر والاصفر « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » رسالة تضمن الحق لكل من تثبت له صفة الانسانية . لا تفاخر ولا تطاول ولا تعاظم الا بالعمل الصالح المتواضع والخلق السامي الركين ، سماحة وصبر وعفو ومياسرة وهدى وارشاد لا ظلم ولا انتقام ولا طغيان .

وكان خليفته الاول أبو بكر رضي الله عنه الناسج على منواله ، والسائر على هديه ، والذي يرى القوي ضعيفا حتى يأخذ الحق منه ، والضعيف قويا حتى يأخذ الحق له ، والذي يرى نفسه مسئولا حتى عن عدوان ذئب على شاة لاحد الرعية ، ولو كان باقصى مملكة الاسلام الواسعة . وهل بعد هذا دقة في الشعور بالمسئولية واستشعار العدالة ؟.

أما عمر بن الخطاب عليه رضوان ربه ، فكان ابعد الخلفاء في ذلك

غورا واخلدهم سيرة • ان صحائف تأريخه الناصع تروي، لنا انه ما كان يسمح لنفسه يوما ان تستشعر لها ميزة على احد من رعاياه • كان يسمع اللوم والتقريع عن كل من ينقده نقدا عادلا لا فرق بين رجل وامرأة ولا بين حر وعبد ، ولا بين كبير وصغير •

وحسبنا عدالة بحاكم كان يسهر الليل جواب آفاق ، والناس نيام ، ليستوضح احوال الرعية ، ويلمس بنفسه من وراء الحوائط آلام البائسين ، ويقف على خلات المعوزين ، غير منتظر منهم ولا من اعوانه ايصالها اليه في مجلس عدله •

لان من الناس من يقنع بؤسه ، ويستر جرحه النزاف تصونا وضنا بالكرامة ، ومن الاعوان مهما اخلصوا من لا يشعر بمثل ما يشعر هو به من عظم الوزر وجلال المسئولية ، فمن ذا الذي يستطيع ان يميط له اللثام عن كل شاردة وواردة من آلام رعيته ، الا ان تكون نفسه الحساسة بمواضع الآلام ؟ ولرب بؤس في الحياة مقنع أربى على بؤس بغير قناع •• وبهذا كان أكثر من أب حدب على أبناء يعدون بالملايين •

ومن ابدع ما يروى عن عدله الدقيق : ان بعض رعاياه ، كانوا ينزلون بداره ضيوفا ، فيصيبون من طعامه الذي يقدم له ما يجعلهم يأسفون على حظهم ، لفوات ما كانوا يقدرون انهم سينالونه على مائدة خليفة واسع السلطان من الطيبات •

ولكنهم لو علموا ان رجل العدالة رجل قلب لا رجل بطن ، وان له من لذة الايمان بالعدل ما تتمه معه اطايب المطاعم والمشارب ، وجميع لذات الدنيا ، لما عجبوا ولا دهشوا •

ولقد كان اقرب خطم الرعية من يده القوية خطام اهله وعشيرته.

الادنين ، يتخذ منهم هدفا لمرمى العدالة ، يراه الناس ، فيأتسون ويؤمنون ويعملون ويخلصون •

وآية ثقة بعـد الثقة بحاكم يقدم عند الشدائد نفسه واهله ، ويقدم عند المغانم سواهم • ليتيم حجة العدالة ناصعة سافرة كالشمس الطلقـة رأد الضحى ؟ ومن يرد عجائب عدله فليرجع الى صفحات التاريخ فانها عجب الدهر •

ومن بديع مأثور التاريخ في هذا المعنى ما روي من أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي العادل ، كان يقتر على نفسه حتى لا يمس درهما من مال الدولة بغير حقه وراق له يوما أن يستخبر خادمه بعض ما لا يعلم من أموال الرعية فقال له : « ماذا يقول الناس فينا بعد أن صار هذا الامر الينا ؟ » فأجابه الخادم في حدة وغيظ : « وماذا يقولون ؟ والله لقد كنا قبل هذه الخلافة اسعد حالا منا بعدها » •

وهنا بدا للخليفة الصالح ان خادمه يكابد من العيش مالا قبل له بمثله ، فأحسـن اليه وسرحه سراحا جميلا ، وقال له : « أنت حر مطلق وسأبقى أنا فيها حتى يكتب لي الله عنها مصرفا » • وقد بقي فيها ما شاء اللـه ان يبقى دون ان يحيد عن سبيله القويم ، حتى وافاه اجله رضي اللـه عنـه وأرضاه •

ومن الطرائف في تحري العدل ما روي : أن المأمون الخليفة العباسي كـان يوما يماشي قاضيه على طريق في بستانه ، وكان القاضي يستره عن الشمس بظله ، فلما ارادا الرجوع ، حاول القاضي ان يظل ناحيـة الشمس ليبقى ستارا له ، فأبى المأمون الا ان يـكون ستارا للقاضـي واحدة بواحدة • فقـال له القاضي : « يا أمير المؤمنين لو استطعت ان

أقيك بنفسي من حر النار لفعلت » فقال المأمون رحمه الله : « نعم ولكن ليس ذلك من كرم الصحبة » .

وبعـد ، فهل يحسن بعاقل يحترم نفسه وانسانيته ان يجهل قيمة العدالة ، وما لها من آثار صالحة في سعادة الافراد والمجتمعات ؟ .

العدالة فضيلة أساسية تقتضيها جميع المعاملات الاجتماعية ، تقتضيها علاقة المرء بأهله ، وعلاقة الجار بجاره ، والقريب بذوي قرابته ، والرئيس بمرؤوسيه ، والحاكم بمحكوميه ، وكل مواطن مع مواطنيه ، حتى يكون السبيل اهدى والطريق اقوم . نسأله تعالى الهداية .

— ٣ —

والآن وقد عرضنا تلك الفضيلة « فضيلة العدالة » عرضا فلسفيا تاريخيا على قدر ما سمح لنا به الزمان والمكان ، نستعينه تعالى في معالجة الناحية العلمية لهذه الفضيلة ، لان معالجة النواحي النظرية والتاريخية المحضة لا يؤتي من الثمرات كل ما يطمح اليه المصلح الاخلاقي. وان عناصر هذا البحث لتستدعي ، بديا ، ايضاح الاسباب والعوامل النفسية ، والطبيعية ، والاجتماعية ، التي تنحرف بالافراد والجماعات عن سنن العدل ، وتحملهم على مركب الجور والبغي ، وتلبسهم من رذيلة الظلم لبوسا ما كان احراهم بأن يلبسوا بدلا منه لبوس العفة والعدالة ، لتظهر انسانيتهم في ابهى مجاليها واسمى معانيها . كما انها تستدعي ، بعد ذلك متابعة البحث عن افضل طرق العلاج الاخلاقي ، وعن انجح الادوية والمطهرات النفسية التي يرجى منها برء النفوس الانسانية من ادران تلك الرذيلة الخبيثة القاتلة .

ونعني هنا بالاسباب والعوامل النفسية تلك الظواهر الفطرية ،

التي يدلنا البحث الدقيق على أنها بعض طبيعة الانسان ومنذ سوي انساناً، ومن قبل ان تلجئه طبيعة البيئة او عدوى المجتمع الى مقارفة الظلم والعدوان ، كما نعني بالاسباب الطبيعية تلك الضرورات المادية

التي يدلنا البحث الدقيق على أنها بعض طبيعة الانسان ومنذ سوي انساناً، ومن قبل ان تلجئه طبيعة البيئة او عدوى المجتمع الى مقارفة الظلم والعدوان ، كما نعني بالاسباب الطبيعية تلك الضرورات المادية
التي يلجأ بسببها الكائن الانساني الى العدوان دفاعاً عن النفس ، مضطراً الى ظلم سواه في سبيل العيش او قتل نفسه جوعاً وحرماناً اذا كف عن ذلك العدوان . اما الاسباب والعوامل الاجتماعية فنعني بها تلك النزوات التي تدفع الانسان الى العدوان ، متأثراً بروح الجماعة التي يعيش فيها ، ولاجل تحقيق مطامح لا تقضيها ضرورة الحياة ، وانما هي ضرب من الاشر والبطروالتجني وحبالغلب والسيادة والظهور بمظاهر البطولة ، يقلد الصغير فيها الكبير ، ويتبع اللاحق فيها السابق .

وبالرجوع الى مظاهر التطور الانساني في التاريخ ، نجد ان النوع الاول وهو العوامل النفسية هو اقدم الاسباب والعوامل جميعاً في الطبيعة الانسانية ، بل لقد ذهبت بعض الديانات ، واشتط منها بعض الفلاسفة المتشائمين ، الى ان العدوان والبغي هو الطبيعة الانسانية كلها، ولذا اوجبت الرحمة ان تكون نهاية هذا البدن المدنس ان يحرق بالنار بعد الموت تطهيراً له ، اذ لا سبيل الى تطهيره مادام ينبض فيه بالحياة عرق . ويقول بعض الفلاسفة المتشائمين :

خبثت يا أمنا الدنيا فأف لنا

بنو الخبيثة أوباش أخساء

ويقول :

اذا بكر جنى فتوق عمراً

فان كليهما لاب وأم

اما الحكيم الشاعر المتنبي فيقول :

اما الحكيم الشاعر المتنبي فيقـــول :

والظلم من شيم النفوس فان تجد

ذا عفـــــة فلعلـــــه لا يظلـــم

ولعل هذه الحـــكمة ، على ما يتوثب فيها من ثورة نفسية ، لم تبعد عن الحقيقة كثيرا .

ان الظلم بلا مراء ، هو بعض شيم النفس الانسانية ، وكم فيها من عجائب وغرائب ! كم فيها من خير وكم فيها من شر ، وانما الموجع فـــي حكمة المتنبي أنه يضع الظلم في الـــكفة الراجحة ، لان اية فضيلـــــة تقابله لن تستطيع الرجحان الا ومعها علة تتيح في الطبيعة الانسانية مفخراً .

وعندي انه مهمايكن في تلك الفضائل التي تقابل الظلم من مفاخر ،ومهما كان عللها تعد خيرا اذا ما قورنت برذيلة الظلم نفسها على بشاعتها وقبحها .

وهذه العوامل النفسية التي تمد رذيلة الظلم في الطبيعة الانسانية تتنوع وتتشكل ، فبعضها يرجع الى الغرائز نفسها حيـــن تتحـــرك فـــي الانسان ، كما تتحرك في الذئب والقرد والنمر ثم لا تجد بازائهـــا مـــن الحصانة العقلية والحـــكمة ما يرد على ميولها السافلة ، ويكسر من شرتها ويلطف من حدتها . والنتيجة العملية لتلك الميول اما ان تـــكون على النفس او على العرض او على المال او على السمعة التـــي يمتـــاز بها ذو المواهب والفضائل ، أو على مواهبهم نفسها .

ولسنا نبالغ اذا قلنا ان جميع الناس ، خلا المعصومين منهم ، عرضة لمقارنة هذه الرذيلة ، خطأ نادرا في الاخيار ، وطبعا وعادة في الاشرار .

وبهذه الدوافع النفسية كانت اول مأساة من الظلم اذ ازهـــق فيها قابيل نفس اخيه هابيل ، غيرة وحسدا دون ذنب او جريرة تستاهل ذلك

العـدوان « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قربانا ، فتقبل مـن احدهما ولم يتقبل من الآخـر قال لاقتلنك قـال انما يتقبل اللـه مـن المتقين ، لئن بسطت الى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليـك لاقتلك اني اخاف الله رب العالمين .. » الآيات الكريمة من سورة المائدة .

وقد يكون من تلك العوامل النفسية حالات مرضية طاغية ، يزيدها غرور المنصب والسلطة هوسا الى هوس . ومن ذلك ما يروى عن الظالم الشهير الامبراطور نيرون الحاكم الروماني في النصف الثاني من القرن الاول الميلادي : أنه اضرم النار في مدينة روما ثم جلس على مرتفع يطل منه على المدينة ، منتشيا بمنظر اللهب ، يدمر كل شيء تدميرا علـى حين كانت انغام الموسيقى تصدح في مجلسه لتزيده جنونا على جنون .

وسواء أصحت الرواية في هذا أم كانت مبالغة في تهويل ظلم ذلك الطاغية ، فانها صورة من صور الطغيان جديرة بأن تضـرب مثلا لذلـك النوع المرضي الجنوني . على انها مع ما فيها من بشـاعة ليست امـرا مستحيلا ولا مستبعدا . وقد اسلفنا في مقال قبل هذا ما كان من امـر فرعون موسى اذ قال : « يا هامان ابن لي صرحا لعلي ابلـغ الاسباب ، اسباب السموات فاطلع الى اله موسى واني لاظنه كاذبا ... » وفي هذا ما يمـكن ان يضرب مثلا للهوس وجنون القوة .

اما عن اسباب هذا المرض النفسي نفسها فأمر يجدر بنا ان نتـرك التعمق في تحليله لاساطين علم النفس . ومع ذلك فان الملاحظة التاريخية تشعرنا بأن منها ما هو خلل في الفطرة نفسها ، كما مر مثاله في نيـرون وفرعون . ومنها ما هو من قبيل « مركب النقص » الذي تبدو اعـراضه على كثيرين من الذين يمتون الى بيئات وضعية ثم يضلون عـن طريق

الوصولية ، او سواها ، الى الرياسة والنفوذ .

ولسنا نبالغ اذا قلنا : ان اكثر الصوالين بالظلم هم نبـــت هذه البيئات ، ولسنا نعني هنا البيئات الفقيرة ، كما قد يظن ، فـكم ينبت منهـا احيانا من عظماء وفضلاء حقيقيين ، انما نعني تلك البيئات المنحلة المسرفة التي لا تعرف قانونا للحياة يلتزم ، ولا دستورا للادب يحتذى ، والتي تتردى دائما بمماياتها في مهاوى الهون . ان نبات هاتيك الاسر لن يـكون ، في غالب الاحيان الا حسكا وزقوما وعوسجا شائكا كذلـك الذي يقول فيه الشاعر :

عذرنا النخل في ابداء شوك	يرد بـه الانامل عـن جنـاه
فما للعوسج الملعون ابـدى	لنـا شوكـا بلا ثمر جنـاه

والحق أن الشوك والشواكة سلاح مشروع في سبيل الدفاع عن العدالة والصالح العام ، اما شوكة الظالمين واشواكهم فليسـت اكثر من اذى للانسانية ليس وراءه من ثمر . واذ قد بان لنا ان الظلم في صـورته النفسية ، يرجع في الاكثر الى سببين هما الخلل في الفطرة ، وسوء المنبت الذي يظهر اثره في صورة « مركب النقص » يحس بنا ان نشير الى ان « مركب النقص » قد يـكون مرده احيانا الى عيب خلقي « بـــكسر الخاء » كأن يشعر الحاكم الظالم انه منقوص الحظ مـن هذه الناحيـة ، لانه ضئيل نحيل او ذو عاهة منفرة ، او بشع الصورة او ما الى ذلـك من أسباب يساعدها جهله ان هذه العيوب الجسمانية غير جديرة بأن يؤبـه لها فيصور له خياله السقيم ان لا مفر له من تعويض هذا النقص باظهـار التجبر والعسف ، لينال الاحترام قسرا بعد ان فاته طواعية . ولـو كـان له من العلم ما يشعره ، أن فضيلة العدالة هي اسمى من كل جمال جسماني

في هذه الدنيا ، لاختار لبوسها وتزين بها فكان من الموفقين .

وتدلنا التجارب على ان « الخلل في الفطرة » داء عسير العـــلاج لانه الحماقة التي بقي من يداويها . أما « مركب النقص » فلا علاج له الا ان ينتبه الرؤساء الى ملاحظة مرؤوسيهم ، ويتتبعوا سلوكهم وسيرتهم فـــي الناس ، ويرشدوهم الى ما هو الاقوم من السلوك مع ابناء مجتمعهم ، وان يعلموهم بالقدوة في انفسهم وانما هم مواطنوهم وسبب نعمتهم ، وانهـــم بدون ابناء مجتمعهم لن يكونوا شيئا مذكورا . ومن يرجع الـــى تاريخ الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يتعلم من فضيلة العدالة ما يغني عن دراسته اسفارا كاملة . وحبذا العمل الطيب لو تنبه وعاظنا الـــى هذا السبيل ، وشغلوا انفسهم به ودلفوا الى كل من ينحـــرف عن جـــادة العدالة من عمال الدولة ، واخذوه بالنصائح الملطفة ومدح التواضـــع ، وشرح مزية العدل وفوائده للحاكم والمحكوم على السواء ، وقديما ايام العصور المظلمة كان الوعاظ يتحايلون لوعظ الظالميـــن بوضع حـــكايات تعنيهم ، على ألسنة الحيوان ، لتقرع اسماعهم فـــــي لطف وتلج الـــى قلوبهم في رفق . فهل يعز على وعاظ زماننا ، وهو عصر النور ، والحرية، والصراحة ان يشنوا حربا سلمية حكمية على هذه الرذيلة الشنعـــــاء ، ليغسلوا من اوضارها قلوب مرضاها ؟ .

اما الاسباب والعوامل الطبيعية ، والاجتماعية لرذيلة الظلم ، فنوعان يتداخـــلان ويتشابـــكان لان قسوة البيئة واجدابهـــا مؤثرات ماديـــة تدفع بطبيعتها الانسان الى العدوان ، دفاعا عن الحياة ، كما شوهـــد ذلك في الجاهلية العربية ، وشعوب الجرمان قديما ، والجزائر البريطانية قبل ان تعزو وتفتح وتستخدم اساطيلها في السيطرة على الاقطار والامـــــم المختلفة .

بدأت تلك الامم وامثالها الحياة في بيئات فقيرة ، تدفع ابناءها الى

العدوان ، فقتلوا وسلبوا ونهبوا حتى تعودوا القتل والسلب والنهب ، ولكن بعض هاتيك الامم تقدمت في مدارج الحضارة والعمران خطوات ، بل مسافات شاسعة ، واصبح مكانها مرموقا بالاعظام ، لما هي عليه من العلم والحضارة والنظام. بيد أن عوامل اخرى للظلم والعدوان،قد نشأت بنشأة تطورها الاجتماعي وترقت معه كما ترقى. فاصبحت تلك الامم تنظم ذلك العدوان على الامم ، وتلبسه اسماء مخترعة فتسميه « ترقيه الامم المتأخرة » ، « حرية الاقليات » او « مواقع استراتيجية » ، الى غير ذلك مما عرفه العالم ، حتى اصبح نغمة ممجوجة وحديثا معادا ، وما هو في الحقيقة الا ان هذه الامم مع ترقيها تعودت مستوى اجتماعيا من الحياة يقتضيها السيطرة على كل موارد العالم لو استطاعت الى ذلك سبيلا .

ودعوى القوي كدعوى السباع

من الظفر والناب برهانها

ولو ذهبنا لفحص تلك الدعاوى وتلك البراهين لدخلنا في طريق لا ينتهي .

وحسبنا هنا ان ندعو تلك الامم بدعوة الانسانية لكي تثوب الى رشدها وتؤثر العدالة ، وتبذل جهدها في مساعدة الامم الاخرى حقا وصدقا ، والا فانها ستظل عادية معادية عليها ، قاتلة مقتولة ، لا تنتهي من حرب الا لتدخل اخرى ، ولا تظفر بنصر الا وقد اشترته باغلى من ثمنه اضعافا مضاعفة . وعسى ان تفيق الانسانية من سكرتها ، وتحل العدل محل العدوان ، فان في ذلك اول دعامة من دعامات السلام والامن والسعادة .

وان في تعاليم الاسلام السمحاء لدعوة حارة لهذه العدالة البيضاء. كما انها من دواعي الفخر بحمده تعالى ان موقف امتنا المصرية من هذا المعترك العالمي يعد بحق من مفاخر الانسانية .

عبّاس طه

فلسفة الأخلاق

ليس بين ما يفتقر اليه الانسان في توثيق صلاته بالخالق اولا ثم بالمخلوق ثانيا ، وفي تعرف طرفي الوجود وتلمس اعلى مراتبه مقرونـا بمظهره الصادق جهـد الطاقـة ، وفـي بلوغـه منـازل المخلصيـن الداعين الى الله والدالين به عليه ، ما له اوثق اتصال بالنفوس من صناعة الاخلاق .

والاخـلاق كما يقول علماء النفس : حلقة الاتصال بين الانسان ووجوده في كل صورة من صور حياته . ولم تـكن تلك الصناعة منذ عهد الخليقة بالتكاليف ، ومنذ تناجت المعقول بالحقائق ، الا حفاظا وثيقـا للنفوس ان تعصف بها اعاصير الشهوات ، وحجابا صفيقا للغرائز الطيبـة ان تستغويها اعراض المرئيات بما يلابسها من غاشيات الطبيعة .

والاخـلاق في كل ما تصدر عنه تستمد وجودها وقوتها من العادة اولا ، ثم من المزاج ثانيا ، ثم من ترويض النفوس وتدريبها على سلوك الطريق السوي ثالثـا .

وعلى مقـدار مسايرة الاخلاق للعادات والامزجة ووسائل التهذيب تـكون قيمة الافعال الصادرة عن الانسان . ووسائل التهذيب هـي المناط في واقع امرها لاسعاد النفوس وتركيز الاخلاق الفاضلة .

اما الامزجة والعادات التي تصدر عنها الافعال في احدى حالتيهـا فهي خاضعة لناموس بقاء الاصلح . وهذا الناموس قد ثبت انه سـاد الانظمة الوضعية جميعا . لـكن ليس على طريقة النشوء والارتقاء ، بل على معنى ان العقول والنفوس الناطقة مضطرة لان تأخذ بالاجدى عليها

من صور الحياة .

وهـــذا مصداق قوله سبحانه : « فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » .

وقد تواضع علماء الاخلاق ، وخاصة المتقدمين منهم ، علــــى ان النفس الناطقة من حيث ما يصدر عنها من الافعال مردها الى قوى ثلاث .

فاولى هذه القوى هي التي يــكون بها النظر في النتائج ، مرتبطــة بمقدماتها من حيث صحتها وفسادها . واستخـــراج المجهــــولات من المعلومات .

وثانيتها ـــ القوة التي تصدر عنها الثورة الغضبية او الحمية والنجدة ، والكلف بالظفر والغلبة والاحتياط بصنوف الكرامــة للاسر والعشائــر والجماعات والافراد ، والامعان بــكل الوسائل الممـــكنة في حــب التسلط والقهر والاذعان لشهوة الانتقام .

وثالثتها ـــ القوة التي بها اثارة الشهوة في صنوفها المتنوعة في المآكل والمشارب وما اليهــا من الوان استمتاع الجوارح .

ويجب ان تبقى هـــذه القوى الثلاث متكافئة لتبقى متعادلة،والالزم من عدم تكافئها طغيان بعضها على بعض . على ان جمهـــرة من علماء النفس عقبوا على تلك النظرية الاخيرة بما يتفق مع قاعدة (تنازع البقاء) حتى في الامور المعنوية .

ومما لا سبيل الى انكاره ان لقوام الاخلاق وملاكها في مجموعها قوى ثلاثا ، هذه القوى في حقيقتها نسبية ، فتكون مقولة بالتشكيــك قوة وضعفا وقلة وكثرة بالقياس الى ما ترجع اليه هذه القوى الثلاث من المزاج والعادة والتهذيب ، على ما ذهب اليه الكثيرون من علمــاء النفس الاقدمين .

هذه القوة ذات آلات ثلاث يختلف بعضهـا عـن بعض اختلافـا قويا ، نظرا لما يترتب على كل واحدة منها من الآثار . فمثلا نرى الدماغ والقلب والكبد فـي مجموعتهـا الآلية ، ادوات مبـاشرة لتلـك القوى الثلاث التي هي عماد الاخلاق وملاكها وعدتها وذخرها .

فالقوة الغضبية او السبعية لها من البدن ، جند يطيعهـا ويستجيب دعاءها ، وهي الجوارح . وللقوة الناطقة اداة تعينها على تحقيق مرادها ، ويعبرون عنها بالقوة الملكية ، تلك الاداة من الجسم ، هي الدماغ . كذلك للقوة الشهوية او البهيمية آلة تدير شئونها وهي الـكبد .

وغني عن البيان ان عدد الفضائل ينبغي ان يـكون بحسب اعداد هـذه القوى وتأثرها بها ، فمتى كانت حركة النفس الناطقة في سيرهـا معتدلة رشيدة شيقة الى تعرف النظريات الصحيحة من اشكالها المنتجـة ترود الامور بوسائلها وتأخذ الاشياء بأسبابها ، نشأت عنها فضيلة العلـم وتلزمها ايضا فضيلة الحكمة .

ومتى كانت حركة النفس الشهوية معتدلة في سيرها منقادة ، الى تدابير النفس العاقلة غير متعاصية عليها ، ولا ممعنة في الاصغاء لهواهـا ، نشأت عنهـا فضيلة العفة ، وتلزمها فضيلة السخاء .

واذا كانت حركة النفس السبعية معتدلة مستقيمة لداعية النفـس العاقلة ، فلا تتبرم ، لا تتسخط ولا تشكو ولا تهيج في غير حينهـا ، ولا تحمى اكثر مما ينبغي لها ، نشأت عنها فضيلة الحلم ، وتلزمها فضيلة الشجاعة .

ولهـذه الفضائل الثلاث اللازمة عن تلك الفضائل التي نشأت عن القوى الثلاث فضيلة هي فضلى الفضائل ، ومرمى كل نابل ، وهي المثل

الاعلى للانسان الكامل ، واعني بها فضيلة العدالة .

لذلك لم يبد عجبا ان يطبق الحكماء على ان الفضائل اربع ، وهي الاجناس العالية لما عداها من الفضائل ، وقد اكثر الاخلاقيون من الاشادة بخصائص هذه الاجناس الاربعة ، وما ينطوي تحتها من الانواع ، ثم بسطوا السنتهم بحثا واستقصاء في تعرف انواع هذه الاجناس وامتدادها، وامراض النفوس وعلاجاتها ، حتى قال صاحب كتاب (الذريعة في مكارم الشريعة) :

ان النفس اذا استعصى عليها ان تجمع بين هذه الفضائل كان خليقا بصاحبها ان يكون كالشجرة الجرداء ، تمترض الناس في غدواتهم وروحاتهم ، فلا هم يستمرئون ثمارها ، ولا هم يتفيؤون وارف ظلها .

وفي الحق ان تلك الاجناس العالية هي مميزات الانسان الكامل ، كما هو حال الانبياء والرسل . ثم من بعدهم خلفاؤهم من العلماء المخلصين والهداة المرشدين . ولعل هذا مصداق قول الرسول : « تخلقوا بخلق الله » . فمن التخلق باخلاق الله ، العمل بمحاب الله ومراضيه في الحياتين العاجلة والاجلة .

ومن هذه الناحية قالوا في تعريف الحكمة : انها فضيلة النفس الناطقة المميزة ، وهي ان تعلم الموجودات كلها من حيث هي موجودة ، وان تعلم الامور اللاهوتية والناسوتية ، وان تميز بعض المعقولات عن البعض الآخر : ايها يجب ان يفعل ، وايها يجب ان يهمل .

كذلك قالوا في تعريف العفة ، انها فضيلة في الحس الشهواني . واظهر مظاهر هذه الفضيلة في الانسان ، ان يستطيع بها الفل من

غرب شهواته ، او ان يصرفها على الاقل تصريفا مقترنا بالرآي الذي يصيب غالبا حتى يـكون طليقا من اسر الشهوات غير متعبد لسلطانها ، والا كان كما قال قائلهم :

رب مستور سبته شهـوة   مذ عرى مـن ستره وانهتكا
صاحب الشهوة عبـد فاذا   ملك الشهوة اضحى ملكـا

واذا فيـكون الحـد الناقص للشجاعة انها فضيلة النفس السبعية. واظهر مظاهرها في الانسان ايضا انقيادها للنفس العاقلة ، على معنـى ان تلقى تلك الفضيلة في نفسه حسن تصريف الامور في عزم وحزم ، وان يستبسل في جسام الخطوب في الليالي الحوالك في رأي يـكون اقرب الى الصـواب منه الى الخطأ ، مع البصر بحسن العاقبة وخير المنقلب ، واذا تـكون العدالة مجتمعة الى تلك الفضائل رابعة الاربع . الخلـق ــ خير الحدود واحسنها ضبطا وادناها استقصاء . انه حال للنفس داعية لها الى افعالها من غير فكر ولا روية . وهذه الحال تشتمل ثلاثة اقسـام ، خلافا لما ذهب اليه صاحب التهذيب (الامام احمد بن مسكويه) .

اولها ــ ما هو طبيعي راجع الى الحالـة التكوينبـة للمـزاج العصبي ، كالانسـان الذي يحركه ادنى شيء نحو غضب ، ويهيجه اقل سبب . وكالانسان الذي يتأثر من أيسر شيء ، كالذي بفزع مـن أدنى صوت يطرق سمعه او يرتاع من خبر يسمعه ، وكالذي يضحك ضحـكا مفرطا من ادنى شيء يعجبه ، وكالذي يغتم ويحزن من ايسر شيء يبدو له .

وثانيها ــ ما يـكون مستفادا بالعادة والتدريب ، وربما كان مبدؤه بالروية والفـكر ، ثم يستمر عليه اولا فاولا حتى يصير ملكة وخلقا .

وثالثها ــ ما يسكون بتلقين الملقن وارشاد المرشد عن تبصر وحسن روية • وهذا هو الفوز الاكبر في رأي جمهرة الاخلاقيين ، لان اصلاح النفوس وتقويمها بحاجة ابدا الى الارشاد ، حتى تبقى وظيفة الكتب السماوية جليلة الاثر ، جمة العبر • وحتى تظل المواعظ الحسنة والحكم البالغة باقية على وجه الزمن •

اما اختلاف الاقدمين في تعريف الخلق ، وذهاب طائفة من اهل التصوف الى بعض الآراء التي تفردوا بها والمقارنة بينها وبين الآراء الحديثة والتعقيب على الضعيف منها •

اصول الاخلاق ــ تواضع علماء الاخلاق الاقدمون على ان اصول الاخلاق كلها اربعة وهي : الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ، اذا احكم تدبيرها وروعيت شروطها ، ظفر الانسان في ادوار وجوده من الحياتين بالفوز الاكبر •

وقد اطبق علماء الاخلاق وعلماء النفس على ان كل اصل من تلك الاصول الاربعة ، تنضوي تحته جزئيات متولدة عنه ، هي في واقع امرها ملاك المجتمع وعماده وهي اساسه وعتاده •

فالحكمة مثلا ينضوي تحتها الذكاء والتعقل ، وصفاء الذهن وسرعة الفهم وقوته والذكر وسهولة التعليم •

والحكمة هي العلم بالموجودات من حيث هي موجودة • وبالتالي العلم بالامور اللاهوتية ، ليكمل العلم بالحياتين : المعاش والمعاد •

ومتى كان العلم برهانيا فلا سبيل الى الشك في ان ما يصدر عنه برهاني كذلك • فالذكاء وهو احدى المنضويات تحت ما صدق الحكمة ،

هو سرعة انقداح النتائج وسهولتها على النفس ، بحيث تـــكون مقدمات تلك النتائج متصلة بالقضايا الصحيحة حسلية كانت او شرطية ٠

والتعقل هو موافقة بحث النفس عن الاشياء الموضوعة بقدر ما هي عليه ٠ وصفاء الذهن هو استعداد النفس لاستخراج المطلوب ليـــكون سبيل الاستنتاج مستبينا ٠

وجودة الذهن او قوته وحدته هي تأمل النفس لما قد لزم عن المقدم، بحيـــث ان وظيفة النفس تـــكون قائمة على تعرف قوة ما بين التـــالي والمقدم من اللزوم ٠

وسهولة التعلم هي حدة في الفهم وصفاء في النفس بها تدرك الامور النظرية ٠ ثم يأتي دور الكلام عن المنضويات من الفضائل تحت فضيلـــة العفة ، التي هي أصلها ومصدر وجودها ٠

فهي الحيـــاة والدعـــة والصبر والسخاء والحرية والقناعة والدماثة والانتظام وحسن الهدى والمسالمة والوقار والورع ٠

فالحياء هو انحصار النفس او وقوفها عند حد معين مخافة اتيـــان القبائح حذار الذم والوقوع في الناس على وجه يطابق الواقع ٠

والدعة هي ســـكون النفس عند حركـــة الشهوة المذلة ، فاذا مـــا ثارت في النفس شهوة الانتقام او التسلط او الغلبة والظفر للجاه او للمال او للنفس ثـــورة تجاوز بصاحبها نقطة الهدف وحد الاعتدال ، كان من الدعة الفل من غرب تلك النفوس الجامحة ، وان نقتـــل تلـــك الشهـــوة الثائرة في انواعها المترامية في اطرافها ٠

فالدعة اخص من العدالة وهي نـــوع من الـــورع الذي يحبو به

الله كثيرا من خلقه . فهي لا تنفك عن الصبر على الكرائه والمفزعـات . وهي نـوع من انواع الرضا بالقضاء والقدر .

والسخاء هو التوسط في الاعطاء ، وهو ان ينفق المال فيما ينبغي على مقـدار ما ينبغي .

والحريـة هي فضيلة للنفس بها يـكتسب المال من وجهه ويعطى في وجهه ، وتمنع من اكتسابه من غير وجهه .

والقناعة هي التساهل في المآكل والمشارب والزينة .

وليست الاخلاق في حقيقة صورها المختلفة شيئا آخر غير جمـاع الخير وينبوع السعادات كلها . على ان كثيرا من علماء الاخلاق اختلفوا في تركز الخلق او تحوله احتلافا عنليسا . فقال بعض الاقدمين منهم :

ان الخلق خاص بالنفس غير الناطقة على معنى انه غير قابل للتحول والانتقال ، والنفوس الناطقة من طبائعها ان تتحول وتنتقل بالقياس الى ما يعرض لها من تفاعل بما يقع تحت الحس والمشاهدات والعادات .

ويذهب فريق منهم الى ان شيئا من الاخلاق ليس طبيعيا للانسان ولا هو غير طبيعي له ، ذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق ، فننتقـل بالتأديب والمواعظ البالغة ، اما سريعا او بطيئا تبعا لقوة تفاعل النفـوس او ضعفها .

وان كان هذا الرأي الاخير هو المرتضى لجمهرة من الاخلاقييـن ، وجرى عليه ابن حزم في ملله ونحله ، ونحا نحوه الامام الغزالي ، وتابعه كثير من السلف ، واختاره (جالينوس) وحـكاه ابن مسـكويه عن ارسطـوطـاليس .

وحجة اصحاب هذا الرأي ما يقع لهم من مشاهدات مختلفة ، وما

يتفاعل به المجتمع من المشاهدات ، وما يحيط بها من تطورات مختلفة وشتى الملابسات • ولأن الرأي الاول من جهة اخرى ، يؤدي الى ابطال وظيفة التمييز في العقل ، ثم الى رفض السياسات كلها وترك الناس همجا مهملين ، ثم بالتالي ترك الاحداث والصبية والى ما يتفق ان يكونوا عليه دون سياسة ولا تعليم •

هذا فضلا عن انه ظاهر الشناعة والسخف جد الظهور ، فهو من جهة اخرى يلقى بهذا الوجود وما فيه من مظاهر وما يحيط به من بواعث، الى قذفات الصدف وفروض الاتفاق • ويحيل هذا المجتمع سوقا وضيعة من السلع ، تكون الغلبة فيه للقوي ، وتتحكم فيه انواع من السلطان الظالمة ، مأخوذة بدواع من الشهوات في سائر مناحي الانسان • وهذا هو المعول الهدام لبناء هذا المجتمع •

اما الرواقيون فيما ذهبوا اليه من شذوذ منقطع النظير ، واما جماعة من المشائيين وبعض آراء منسوبة ان صوابا او خطأ الى (جالينوس) واما ما ذهب اليه فريق من المندية وبعض فلاسفة الهند مما يتنافر مع النظريات السليمة التي تقوم عليها عمارة هذا الكون •

هذا غيض من فيض مما يتصل بالاخلاق التي يجب ان تكون في الانسان كأفضل مميزاته بل مقوماته ، وما يتألف منه قوام الاخلاق من انواع واقسام ، وبخاصة ذلك الطابع الذي يطبع النفس بطابعها الخاص ، ويروضها على افضل المثل العليا واعمقها اثرا في صميم هذا المجتمع •

وليس من شك في أن كل جسم من الاجسام له صورة تشخصه وتحدده فلا يقبل صورة اخرى من نوع ما تعين عليه من الصورة الاولى الا بعد مفارقته لها •

فمن المسلم به ان الجسم اذا قبل صورة من الصور كالتربيع او التثليث مثلا ، فلا يقبل شكلا آخر كالتدوير ، الا بعد ان يفارقه الشكل الاول ، كما انه اذا قبل صورة من النقوش او الكتابة او ما اليها ، فلا يتأتى ان يقبل صورة اخرى كذلك •

ولكن النفوس لا تجري هذه السنة ، فانها تقبل جميع الصور حتى المتناقضة منها ، ولا تمحو صورة اثر صورة أخرى •

وهذا دليل على انها من جوهر لطيف مباين لجوهر المادة • وان طباع النفس وخلقها ، تباين طباع الجسم وخواصه ، وانها اكرم جوهرا وافضل طباعا من كل ما في العالم من الامور الجسمانية •

والنفس وان كانت تتلقى كثيرا من مبادىء العلوم عن الجسم، لها من طبيعتها مبادىء اخرى ، تلك هي المبادىء الشريفة ، والمطالب العالية التي لا تمت الى عالم الاجسام بأوهى سبب • وهي المبادىء التي تستنبط منها الاقيسة الصحيحة •

فمثلا اذا حكمت النفس بان ليس بين النقيضين واسطة فليس ذلك مأخوذا عن الحس • وكذلك اذا حكمت على الشيء بانه صادق او كاذب فلا يمكن ان يكون ذلك وحده مستفادا من الحس ، ولكنه مستفاد مما تجده النفس بالقياس الى المقدمات والنتائج •

ونحن نجد النفس العاقلة فينا تستدرك شيئا غير قليل من خطأ الحواس ، لانه لا يضاد نفسه فيما يحكم فيه من مبادىء افعالها وفيما ترد عليها احكامها •

فالبصر مثلا يجوز عليه ان يخطىء فيما يراه من قرب او من بعد، فاما خطؤه البعيد فقد يدرك الشس مثلا صغيرة مقدارها عرض قدم

وهي في واقع امرها ، تماثل الارض مليونا وثلاثمائة مرة عند علماء

وهي في واقع امرها ، تماثل الارض مليونا وثلاثمائة مرة عند علماء الفلك بشهادة البرهان الرياضي .

واما خطؤه في القريب ، فمثاله ضوء الشمس اذا وقع علينا من كوة صغيرة او من مربعات صغار ، فانه يدرك بها الضوء الواصل الينا منها مستديرا ، فترد النفس العاقلة عليه ذلك الحكم وتغلطه في ادراكه . ونعلم انه ليس كما يراه .

ويخطىء البصر ايضا في حركة السفينة والشاطىء والنجوم والكواكب . ويخطىء في الاشجار المتراصة وفي النخيل ، وفيما هو متجانس الابعاد حين يراها مختلفة في اوضاعها .

ويخطىء ايضا في الاشياء الغائصة في الماء حتى يرى بعضها اكبر من مقداره ، ويرى بعضها معوجا وهو مستقيم . فيستخرج العقل اسباب هذه الاشياء كلها من مبادىء علمية،ويحكم عليها احكاما صحيحة. ويخطىء ايضا في الاشياء التي تتحرك على الاستدارة حتى يراها كالحلقة والطوق . وكذلك الحال في حاسة السمع وحاسة الذوق وحاسة الشم وحاسة اللمس ، فالعقل هنا يرد القضايا ويقف منها موقف المدافع الذائد عن بيضته ، ثم هو يستخرج اسبابها ويحكم فيها احكاما ظاهرة الصحة . والحاكم في الشيء المزيف له او المصحح افضل بكثير واعلى رتبة من المحكوم عليه .

وعلى الاطلاق فان النفس اذا علمت ان الحس صدق في تقديره او كذب ، فليست تأخذ هذا العلم من الحس قطعا ، ثم اذا علمت انها قد ادركت معقولاتها فليست تعلم هذا العلم من علم آخر . ولكن من ذاتها ، لانها لو علمت هذا العلم من علم آخر لاحتاجت في ذلك العلم ايضا

الى علم آخر ، وهذا يمر بلا نهايـة ، وليست تحتاج في ادراكهـا ذاتها ، الى شيء آخر غير ذاتها • ولهذا قيل في اواخـر هذا العلم : ان العقـل والعاقل والمعقول شيء واحد •

واذ قد تبيـن من هذه الاشياء بيانـا واضحـا ان النفس ليست بجسم ولا بجزء من جسم ولا حال من احوال الجسم ، وانها شيء آخـر مفارق للجسم بجوهره واحكامه وخواصه وافعاله ، فلا بد من ان نعرض لشيء غير قليل مما تصبو اليه النفوس ويدخل في متناول عقليتها فيقول :

من المسلم به ان النفس شيقة الى معالجة الفضائل مـع نبوها عن الافعال الجسمانية العالقة بعالم الاجسام •

والفضائل لا يستطاع تحصيلها الا بعد ان تطهر نفوسنا من الرذائل التي هي اضدادها ، وهي شهواتها الرديئة الجسمانية ، ونزواتها الفاحشة البهيميـة •

فان الانسان الخير اذا علم ان هذه الاشياء ليست فضائل بل هـي رذائل ، تجنبها وكره ان يوصف بها • واذا ظن انها فضائل لزمها وصارت عـادة •

وهكذا تصبو النفوس الخيرة الى كل معاني الخير ، وتنبو عن كل معاني الشر • مما يحتاج معه الى تبيان الاوضاع الناجسـة عن ذلك ، والكشف عن عللها على ضوء آراء الاخلاقيين لتكوين الصورة الواضحة التي يركـن المرء اليهـا •

وهنا يتوجب علينـا ان نعرض ولو لماما الى شـوق النفس ومـا يصدر عنها من الافعال المميزة لها عن النفوس غير الناطقة ، فشوق النفس الى العلوم والمعارف فضيلة من فضائلها ، بل هي الفضيلـة العظمى التـي

اربت على كل فضيلة منذ قيام البشرية في الارض بعبء التكاليف .

وعلى مقدار طلب الانسان لهذه الفضيلة واستلهام الاصلح منها في شتى مناحيها والتغلب على العوائق التي تقطعه عنها ، يكون نجاحه فيها .

وبدهي ان الفضائل من حيث هي كذلك ، لا يستطاع تحصيلها الا بعد ان تخلص النفوس من الرذائل التي هي اضداد تلك الفضائل ونقائضها ، وهي شهواتها الثائرة الجسمانية ، ونزواتها الفاحشة البهيمية .

ذلك لان الغرض المقصود من وجود الانسان حين يتوجه اليه هو ما يجب ان يسمى الشخص به خيرا[3] او سعيدا . اما من عاقته العوائق وصرفته الصوارف عن بلوغ ما يحصله من مميزات الانسان الذي يحمل النفس الناطقة ، فهو الشرير او الشقي .

فالمميزات اذا ، هي التي تحصل للانسان بارادته وفعله واختياره وسعيه في الامور التي من اجلها وجد الانسان وقام بمهمة عمارة الكون وتحري افضل برامج الحياة .

وقد قسم الفلاسفة الاولون الاخلاق الى اقسام شتى ، فمنها ما هي شريفة ، ومنها ما هي ممدوحة ، ومنها ما هي بالقوة كذلك .

ومن الواضح ان لكل موجود من الموجودات كمالا خاصا وفعلا لا يشاركه فيه غيره من الموجودات . وهذا الحكم مستمر في الامور العلوية والسفلية ، كالشمس وسائر الكواكب ، وكأنواع الحيوانات والنبات والمعادن .

ولكن الانسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص لا يشاركه

فيه غيره وهو ما صدر عن قوته المميزة العاقلة ، فكل من كان تمييزه اصح ورؤيته اصدق واختياره افضل ، كان اكمل في انسانيته وابلغ في معقوليته وافعل فيما يترتب عليها من الآثار .

وكما ان السيف والمنشار مثلا ، وان صدر عن كل واحد منهما فعله الخاص وهو القطع بالقياس الى كل واحد منهما منفردا عن صاحبه ، يختلفان في كيفية القطع وسرعته وبلوغ الغاية منه على اكمل وجوهها، فكذلك الانسان بالقياس الى ما دونه من بني جنسه .

وكذلك الشأن في الفرس والبازي وسائر الحيوانات ، فان افضل الافراس ما كان اسرع حركة وعدوا واشد نشاطا وتيقظا لما يريده الفارس منه من طاعة اللجام وحسن القبول في الحركات وخفة العدو والنشاط .

فكذلك الناس افضلهم من كان حريصا على افعاله الخاصة به واشد تمسكا بشرائط جوهره الذي تميز به عن الموجودات .

واذا يكون من الاحرى بكل ذي مسكة من العقل ان يحرص الحرص كله على الاستمساك باسباب الخير ومصادره ، وان يفر بدينه وعرضه وخلقه من اسباب الشر وبواعثه ليستكمل من الحياتين اوفر حظ واوفى نصيب . فان الحيوان كالفرس مثلا اذا بدا منه تقصير عن الحد الذي ينعت الفرسية وانحط عن الفضل المتمم لماهيته ، بحيث لم تظهر مميزاته اللاصقة به على اكملها واتم وجوهها ، انحدر الى مرتبة الحمر وكان خليقا ان يؤخذ بالاكاف ، وان يساق بالعصا كما تساق الحمر .

وكذلك حال السيف وسائر الآلات متى قصرت عن اداء ما يحفظ لها نعوتها ، انحطت عن مراتبها الى ما دونها واستعملت استعمالا يتفق وما هبطت اليه من غير مستواها الموجهة اليه .

فالانسان اذا نقصت افعاله وقصر فيما خلق له وقامت فى وجهه الصوارف لفعله الصادر عنه باختياره بحيث تكون افعاله الصادرة عن رويته غير بالغة حد الانسانية المهذبة العاقلة ، انحط الى مرتبة البهائم والتحق باصناف ليست من صنفه .

اما اذا صدرت عنه تلك الافعال مضادة لانواع الخير بحيث تكون مظاهر من الشر ومجموعة غير صالحة من الرذائل التي من شأنها ان تصرفه عما عرض له من تزكية نفسه وصقلها في قالب من الخير ينتهي به الى الملك الرفيع والجاه المنيع والسرور السرمدي والعيش الرضي ، وانخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الحساسات الوقتية التي لا ثبات لها ، كان خليقا بالمقت من خالقه ، حقيقا بالرثاء له .

واذا تجلى للناظر ان سعادة كل انسان تكون بالقياس لما يصدر عنه من الافعال ، المميزة للانسان والتي هي جزء من مقوماته ، وان هذه السعادة المترتبة عما يصدر عنه من الافعال مراتب كثيرة بحسب الروية والمروّى فيه ، ولذلك قيل : افضل الروية ما كان في افضل مروٍّ .

ثم ينزل مرتبة فمرتبة الى ان ينتهي الى النظر في الامور الممكنة من العالم الحسي ، فيكون الناظر في هذه الاشياء قد استخدم رويته والصورة المميزة له ، التي بها صار سعيدا متأهلا للملك الابدي والنعيم السرمدي ، بالقياس الى اشياء دنيئة وامور تافهة ، لا ثبات لها ولا ظل لها من الحقيقة .

فقد تبين ان هناك اجناسا من السعادات على الجملة ،وان اجناسا من الشكاوات على الجملة ، تنحل هذه وتلك الى جزئيات بحسب ما يصدر

عن الانسان من العوامل الموجبة والسالبة ، وبحسب ما تتفاعل به نفسه منساقة بعوامل الخير او بدوافع الشر ، وكل ميسر لما خلق له ، وان الخيرات والشرور في الافعال الارادية هي اما باختيار الافضل والعمل به ، واما باختيار الادون والميل اليه .

ولما كانت هذه الخيرات الانسانية وملكاتها التي في النفس كثيرة ولم يكن في طاقة الانسان الواحد القيام بجميعها ، وجب ان يقوم بجميعها جماعة كثيرة منهم .

ولذلك وجب ان تكون اشخاص كثيرة وان يجتمعوا في زمان واحد على تحصيل هذه السعادات المشتركة لتكميل كل واحد منهم بمعاونة الباقين له ، فتكون الخيرات مشتركة والسعادة معروضة بينهم فيتوزعونها .

ولاجل ذلك وجب على الناس ان يحب بعضهم بعضا ، لان كل واحد يرى كماله عند الآخر ، ولولا ذلك لما تمت للفرد سعادته ، فيكون اذا كل واحد بمنزلة عضو من اعضاء البدن، وقوام الانسان بتمام اعضاء بدنه .

يتضح من هذا ان هناك قسما غير قليل من الفروق المتفاوتة في بني الانسان ،وان النفوس تتفاضل بتفاضل البداءة واختلاف الثقافات ، والآن نريد ان نعرض للانسان من حيث كونه مصدر الخير او الشر ، وكيف يكون اقلاعه عنهما بطيئا او سريعا .

فالانسان بما اسبغ الله عليه من نعمة التفرد بجوهره عما يشاركه فيها من العوالم الاخرى حتى صار ملكا قائما على عالم الاجرام ، وخليفة لله في ارضه ، يستجمع بين حواسه الظاهرة والباطنة ،ويدخر في قواه المفكرة وحركاته الارادية ، ما يدبر به تلك المملكة ، ويتصرف

بمقتضاها تصرفـا هو اجدى انواع التصرفات واروح لسائر الكائنات ، وابرز وجودا واطول خلودا .

من اجل ذلك ، يذهب الاخلاقيون الى ان كل ما يصدر عن الانسان من حيث كونه كذلك ، يجب ان يكون تامـا في فعله ووصفه ، وهذا ضروري لان صناعة الاخلاق ، قائمة على تركيز الخلـق فـي الانسان ، واحاطته بسياج صفيق،واتخاذ الفضائل الاربع التي اسلفنا للقارىء كثيرا من فيوضاتها ، حتى يقـاوم الخير في النفوس بمـا ركز فيهـا من خلق عاديات الشر وغوائل الطبيعـة . ومتى احكم ذلك السياج المنيع بتدبير من الرويـة والهام من الخير ، وجب ان يكون الانسان في مملكته اعلى المثل الطيبة في جميع مـا يصدر عنه .

فاذا كانت جواهر الموجودات متفاوتة في الشرف ، لنظرا لما يصدر عنهـا من آثار ضارة او نافعة ، كانت بالقياس الى ما تنزع اليه شريفـة او وضيعـة .

اما الانسان من بين هذه الموجودات ، فهو متحـل بضروب مـن الاستعدادات لضروب من المقامات ، وليس ينبغي ان يكون الطمع فـي استصلاحه على مرتبة واحدة .

وان ما يجب ان يعلم قبل كل شيء ، هو ان وجود الجوهر الانساني متعلق بقدرة خالقه ومنشئه سبحانه وتعالى عن الشبيه والنظير .

غير ان تجديد ذلك الجوهر بوسائل قمع الشهوات واحلال اضدادها مكانها ، وتمحيض ذلك الجوهر للخير قدر الجهد ، حتى يصهر النفوس الشريرة من علائقها ، ويكبح فيها ملكـة الجموح ، ويحيلها الى نوع من السعادات ، انمـا هو عمل الانسان ومتعلقات قدرته ، واثر مـن آثـار

ارادتـــــه .

ومما لا مرية فيه ان الاخلاقيين معنيون ابدا بتعرف أن نفوسنا ما هي ولاي شيء هي ، وان لكل جوهر موجود كمالا خاصا به وفعـــلا لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشيء .

لذلك كنا نحن ايضامعنيين بمعرفة الكمال الخاص بالانسان ، والفعل الذي لا يشاركه فيه غيره من حيث هـــو انسان ، لنحرص علـــى طلبـــه وتحصيله فنسمى بالبلوغ الى قمته .

ولما كان الانسان في حقيقة امره مركبا لا يتجزأ الا من حيث مـــا يصدر عنه ، كان واجبا ان يكون مفهومـــا صدور تلك البسائط فـــي افعالـــه الصادرة عنـــه .

فافضل الناس هـــو اقدرهم على اظهار فعله الخـــاص والزمهم لـــه وادومهم عليه ، من غير تلون فيه ولا اخلال به في وقت دون وقت .

وبذلك اذا عرف الافضل يعرف الانقص ، على اعتبار ملاحظة الضد ، فالكمـــال الخاص بالانسان ينحل في الحقيقة الى كمالين ، ذلـــك لان للانسان قوتين : احداهما العالمة والاخرى العاملة .

فباحدى القوتين يشتاق الى المعارف والعلوم ، وبالاخرى الى نظم الامور وتنسيقهـــا ، وبهاتين القوتين سما الانسان الى معارج الكمـــال وتحلل من اسر المادة وعلائقها ، فقبض بكلتا يديه على مؤسسة هـــذا الوجود ، واخضعهـــا لتصرفاته التي تعتبر اثـــرا مـــن آثاره ، ولنموذجا صالحا من نماذج الانسانية الفاضلة والخلق الكريم .

فان للانســـان في ترتيب هـــذه الآداب وتلـــك وسياقهـــا اولا فأولا الى الكمال الاعلى طريقـــا طبيعيا يشتبه فيها بفعل الطبيعة ، بـــان

ينظـر الى القوة التي تحدث فينا ، ايهـا اسبق الينـا وجودا ، وامضى بيـن ظهرانينا قدمـا ، فيبدأ بتقويمها ، ثم بمـا يليهـا على النظـام الطبيعـي وهو بين جلي •

ذلك ان اول ما يحدث فينا هو الشيء العام الذي يحدث للحيوان والنبات بنوع عام ، ثم هو لا يزال يختص بشيء بعد شيء يتميز به عـن نوع بعد نوع ، حتى يستحيل الى الانسانية •

من اجل ذلك يذهب الاخلاقيون ، الى ضرورة ان نبدأ اولا بالشوق الذي يحصل فينا بواسطة الغذاء فنقومه ، ثم بالشوق الـذي يحدث فينا الى الغضب ومحبة الاثرة والتسلط فنقومه • ثم بآخر مراتبه وهو الشوق الذي يحصل فينا الى المعارف والعلوم فنقومه ، وهذه المرتبة الاخيرة هي المتخلصة للانسان ، فهي مرمى عارفه وراحة كفه ، وهي التي يسعد بهـا في السعداء ويشقى بها في الاشقياء ، فاذا قوّمها فانمـا يقوم اسبابهـا وينسق عللهـا •

وليس معنى ذلك ان يقومهـا كمـا قومها في المرتبتين الاولين ، فان الانسان اذا اشتاقت نفسه الى العلوم والمعارف قبل ان يقطـع شوط الطفولة وما يقرب من حد المراهقة واليفوعة ، كـان ذلك غير قـانـون الاخلاقيين • فكـان ضروريا ان يلقن في تلك المرحلة من مراحله مبادىء ذلـك القانـون رويدا رويدا ، حتى تستحكـم عراه وتتآخذ علله واسبابـه •

وهذا الترتبب طبيعي لما يبدو في الانسان من اول نشوئه من الشعور بانه يكـون جنينا ، ثم يكون طفلا ، ثم يكون رجلا كامـلا • فكـان بدهيا ان تحصل فينا تلـك القوى مرتبة على منازل ثلاثـة • ومن اجل

ذلك كان الانسان في آخر دور من ادوار وجوده حامل الرسالة ، ومؤدي الامانــة وخليفــة الله في ارضه .

ومما هو غني عن البيان ان الانبياء والرسل كانــوا اشرف الناس بالقياس الى شرف ما يصدر عنهم من كرائم الخصال وبيض الفعال ، لانهم احاطوا عقولهم ونفوسهم بتلــك المثل العليا للفضائل ، فورثهم ذلــك النبوغ الاخلاقي ، استحقاقهم لان يقبضوا على ناصية هذا الوجود،وان يشعوا فيه اضواء رسالاتهم وتعاليم وحيهم بين الناس جميعا ، فكانــوا المثل الكامل في الانسان الكامل .

شوق النفس ـ ويقصد به شوق النفس الى فضائلها الصادرة عنها ، وكيف ان النفوس تجنح الى فضائلهــا وتحدب عليها حدب الام الرؤوم على واحدهــا .

فالفضيلة التي تكوّن سائر الفضائل لا بد ان تكون مستندة الــى عناية الانسان بتحصيل العلوم ، ثم تحصين النفس من الطغيان الشهواني ، الذي اذا اصاب النفس في صميمها ، قتــل فيهــا روح الاستعداد للخير ومحضهــا للشر .

فهذه الفضيلة تقوى وتتزايد بمحض عمل الانسان ذاته،وتوافره على افضل المثل العليــا يتخذهــا عنوانا على كل ما يصدر عنه مــن الافعال .

فقد يبدو للانسان لاول وهلة ان مــا يقع تحت سلطان المشاعــــر كالمآكل والمشارب وما اليهــا من صنوف المتع داخل في عداد الفضائل ، ولكنــه اذا راجــع نفسه يتبيــن ان تلك اللذائــذ لا يصــح ان تعتبر فضائل ولا تسوغ ان تكون شعارا للانسان الناطق .

فكل موجود من حيوان او جماد اونبات،وكذا بسائطهــا والاجرام

والعمل على انمائها واذكاء اسبابها وبواعثهـا ، وهـو الذي سمـى الكائن (هو ما هو) و (اي شيء هو) ، وبها يتميز ذلك الموجود عن كل مـا عـداه .

كما ان له قوى وملكات وافعالا يشارك بها ما عـداه . والانسان بطبيعة تكوينه هو الذي يلتمس له الخلق المحسود بوصف كونـه نفسا مفكرة ناطقة ذات سلطان على الموجودات .

وهذا مصداق قوله جل من قائل « هو الذي خلق لكم مـا في الارض جميعـا » .

من اجل ذلك ليس لنا ان تنظر نظرا تحليليا مصحوبـا بالتمحيص والتدليل الى تلك القوى وتلك الملكات التي يشارك الانسان فيها سائر الموجودات ، ما دمنـا بصدد الكشف عن الفضائل والخيرات التى يجب ان تكون مميزات النفس الناطقة ومقومات لها .

ولسنا الآن بصدد بيان شيء منها ، لان بحث الاخلاقيين مقصور على بيان القوى والملكات والافعال للانسان ، فمتناول بحوثهم قوى الانسان وملكاته وافعاله من حيث صدورهـا عنه واتصالها به ، ويسمونها العلوم الارادية ، باعتبارهـا حاصلة بمحض اختيار الانسان ، وارادته ، وهـي التـي بهـا تتعلق قوة الارادة والتمييز .

والنظر فيها وفي مقدماتها ونتائجهـا وآثارهـا المترتبة عليها يسمى الفلسفة العلميـة ، ويرتبـون على تلـك النظرة ضـرورة انقسـام الافعال الصـادرة عنه الى الخيـرات والشرور ، وبالتالـي الى الفضائل والرذائـل . ذلـك لان الغرض المعيـن من وجـود الانسـان اذا اتجهت النفوس اليه مخلصـة هو تركيز الفضائـل في تلـك النفوس ،

والعمل على انمائها واذكاء اسبابها وبواعثها ، وهـــو الـــذي سمـــى الانسان به وعند تحصيله اياه خيّرا ، فاذا عاقته عن تحصيل تلك الفضائل العوائق وصرفته عنها الصوارف ، كان هو الشرير لا محالة ، لاســـتحالة خلو نفس الانسان من كلا المتقابلين في آن واحد .

وبدهي ان كل موجود من الموجودات له كمال خاص وفعل خاص لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشيء في مشخصاته ومميزاتـــه ، فلا يجوز ان يكون موجودا سواه ، يصلح لذلك الفعل صلاحيـــة الانسان الذي اجتمعت لـــه تلـــك المشخصات وتلك المميزات . وهذا حكم مطرد البقاء في العوالم السفلية والعلوية .

فاذا الانسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص صادر عنه لا يشاركه فيه غيره ، وهو مـــا صدر عن قوته المميزة المقرونة بالروية .

واذا يكون كل من كان تمييزه اصح ورويته اصدق واختياره امثل ، كان اوعى لاسباب انسانية واجمع لمقوماتها . وقد يتدلى الانسان بالقياس الى مـــا يصدر عنه من الافعال حتى ينحط الى مرتبة ليس دونها مرتبة.

وافضل الناس من كان اقدر على تصريف افعاله الخاصة به ، واشد تمسكـــا بشرائط الفضائل وحدودها ،واكبح لجماح نفسه عن الاسترسال في غوايتهـــا والركون الى شهواتها .

ومما لا حرية فيه ان الانسان كلما رقي بجوهر نفسه الى الكمالات، كان اعم انسانية واعود فائدة على المجتمع .

والانبياء والرسل عليهم ان يبينوا السنن والطرائق لكل مـــا يصدر عن الانسان من خير وشر . فقالوا هذا حلال وهذا حرام وبينهما امـــور مشتبهـــة .

وجاء العلماء على اقدامهم فاوضحوا السبيل واقاموا بين النـــاس

حدودا فاصلة حاسمة . فالانسان بقدر ما يغترف من تلك الفيوضات الالهية ، يكون مبلغ استحقاقه للاتصاف بوصف الانسانية ، فاذا انحط على تلك المراتب المرسومة الحدود كان خليقا ان لا يكون انسانا.

واذا تبين ان سعادة كل موجود انما هي بالقياس الى ما يصدر عنه من العلوم الارادية والافعال الاختيارية التي تميزه عما عداه وترسم حده التام بين ثنايا الخلود التي لا يتناكر فيها الاشخاص ولا يطغى فيها بعض الاناسي على البعض الآخر ، لا مناص من اعتبار الروية اعلى سببا من الاسباب المكونة لمراتب السعادة كلها .

فان لهذه السعادة مراتب كثيرة متفاوتة ، بحسب الروية والمروى فيه وهو الانسان . من اجل ذلك قالوا افضل الروية ، ثم ينزل رتبة فرتبة، الى ان ينتهي الى النظر في الامور الممكنة التي تقع تحت سلطان العالم الحسي . فيكون الناظر في تلك الاشياء قد مارس رويته واعمل قريحته ، فحصل على الصورة الخاصة التي بها امسى سعيدا مستأهلا للملك الابدي والنعيم السرمدي .

وقد تواضع علماء الاخلاق على ان هنالك اجناسا من السعادات والشقاوات . وان الخيرات والشرور في الافعال الارادية ، هي اما باختيار الافضل والعمل به ، واما باختيار الادون والميل اليه .

على ان هذا المجتمع لا يثمر ثمرته المرجوة الا بتضافر الايدي العاملة في بنائه . فما من لبنة في اساسه الا وهي محتاجة الى يد تحكمها بتدبير وتحيطها بحزم وتنميها بروية ، فلا يتم بناؤه الا باجتماع الايدي وتضافر القوى .

من اجل ذلك اوصت الشرائع الناس ، بالتحاب والتراحم والتواصل، لتبقى له حياته وتدوم عليه نعمة الوجود الذي يجني الناس من ورائه اطيب الثمرات وابرك الفوائد .

فهرست

		ص
الاخـــلاق ــ الاحلاق	محمد ابـو زهرة	٥
الدين والاخلاق	الدكتور محمد يوسف موسى	١٧
للاسلام منهج اخلاقي	الدكتور محمود قاضي	٢٥
كيف كان الرسول يسوس اصحابه	عبدالحميد العبادي	٣٣
الاسلام والمعترك الابدي بين الخير والشر	عبدالمنعم خلاف	٤١
حول عظمة الرسول	محمد احمد الغمراوي	٤٩
من اخلاق القرآن	الدكتور عبدالوهاب عزام	٥٩
من اخلاق الاسلام	يوسف الدجوي	٦٧
مكارم الاخلاق بين الادب والفلسفة	ابو بكـر ذكرى	٧٥
فلسفة الاخلاق	عبـاس طـه	٩٥

١٢٠

محمّد أبو زهرة
محمّد يوسُف موسىٰ
محمُود فيّاض
عَبد الحميد العبّادي
عَبد المنعِم خلاف
محمّد أحمَد الغمرَاوي
د. عَبد الوهّاب عَزام
يوسُف الدجوي
أبو بَكر زكري
عبّاس طه

التوزيع :
مكتبة الشواف
الريَاض العليا ـ شارع الثلاثين
هاتف : ٤٦٢٢٦٦٧ / ٤٦٢٢٦٣٠